دكتور

بول غليونجي

الطب عند قدماء المصريين

الطب عند قدماء المصريين

دكتور
بول غليونجي

الطب عند قدماء المصريين

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والاسكندرية

مؤسسة المعارف للطباعة
والنشر ببيروت

تقديم الطبعة الثانية

نشرت الطبعة الأولى لهذا المؤلف المتواضع منذ ست وعشرين سنة رغبة مني فى تبصير شباب هذا الجيل بماضيهم المجيد فى واقعية تخلو من التفاخر الكاذب ، حيث أن الحقيقة تكفينا فخراً بأجدادنا. وقد حاز إقبالا استنفده تو ظهوره ، وكثر الطلب ، وشغلتنى مهام أخرى عن إعادة طبعه.

واليوم ، تلبية لإلحاح المريدين ، فانى أدمجت مؤلفين هما «طب وسحر» و «الطب عند قدماء المصريين» بين دفتى هذا الكتاب ، لعلنى أوفق فى تزويد الدارسين بما يغنى حاجتهم، وأضفت الى المادة السابقة تفاصيل جديدة. ولكنى لم أثقله بذكر المراجع حتى يحتفظ بسهولة القراءة. وعلى الباحثين المدققين الرجوع الى مؤلفاتى الأخرى حيث يجدون القضايا مفصلة والمراجع مستكملة والأصول مصورة ، لعلهم يجدون فيها متعة وإثارة.

بول غليونجى

المقدمة

قال بتاح ــ حتب : «انما الحق يدوم ... ونستطيع القول عنه : هذا تراث أبي».

والحمد لله الذي أوجدنا في هذه الأرض الخصبة التي أنجبت حضارة لم يسبق مثيل لها ، ولم تفتأ تذهل العالم بما حققته ، وتثير إعجابه بروحها المتجددة التي سمحت بمسايرته بل بمسابقته ، رغم جميع المحن التي ألمّت به.

ومن بوادر هذا التجديد أن أعادت كلياتنا حديثا تقليداً قديما كان قد أهمل الى حد ما وهو دراسة تاريخ الطب.

واذا كانت دراسة تاريخ الطب أهملت زهواً بما حققه العلم الحديث ، الأمر الذي أنسانا بعض الشيء ما ندين به الى الماضي .. فان كليات العالم جميعا قد عادت الى استئنافه بنشاط وهمة. وعنيت الدول بإنشاء الجمعيات القومية المعنية بتاريخ الطب ، ومنها الجمعية المصرية لتاريخ الطب والعلوم الطبية. وكذلك قامت جمعية دولية استطاعت بالرغم من حداثة عهدها عقد عدة مؤتمرات هامة.

على أن الاهتمام لدى أعير هذه الدراسة قد تغير وجهه على مر العصور .. ففى القديم ، كانت دراسة كتب الطب القديمة غاية فى ذاتها. إما أنه كان يظن أن العلم كان قد أنزل على القدامى وأنه فى طريق النسيان بفعل الزمن. وإما للاعتقاد بأن المنطق المجرد يعلو على تأمل الحوادث تأملا نزيها. فقد كان الطب فى هذا الوقت خاليا من الفضول ، يعتمد على النصوص الى درجة أن الحيد عن آراء أبقراط أوجالينوس كان يعد أخطر من اقتراف جريمة ، وقد حدث ذات الشىء عند قدماء المصريين ، فان ما حققه الطب من رقى وابتكار طوال الدولتين القديمة والوسطى يبدو وكأنه توقف فى الدولة الحديثة من جراء ما اتسم به الطب من «المدرسية» فى المنهج ، ولنذكر فى هذا الصدد ما كتبه ديودور الصقلى : «إن الأطباء المصريين يصفون العلاج للمرضى وفق ما وصل اليهم من تعاليم القدامى من الأطباء ذائعى الصيت ، ولا حرج عليهم إن لم يوفقوا فى القضاء على العلة ، وعلى العكس من ذلك فإن اهمالهم فى تطبيق تلك التعاليم كان يعرضهم الى المحاكمة وكانت عقوبتها أحيانا الاعدام».

ومع ذلك أفليس طبيعيا بالنسبة لمحترف مهنة من المهن أن يعكف على دراسة تاريخ الفرع الذى تخصص فيه والذى جعل منه مبعثا لحياته . أقول أليس طبيعيا أن يعكف على دراسته بالحنو نفسه الذى يشعر به الانسان حين يشهد طفله وهو يخطو خطواته الأولى أو يسمعه وهو ينطق بأول كلمات له.

انني أذهب الى أبعد من ذلك لأننى أجد فى هذا الحنو على الطفولة قيمة تفوق مجرد التأثير .. أرى فيه فضولا نحو ميلادنا نحن الذين نعدّ أنفسنا بالغين ، وسوف يقال عنا أجنة ... وهكذا نتعرف فى الطفل على الإنسان القديم كما نتعرف فى الشخص البالغ على الانسان الحديث ...

عـم ، إن دراسـة تاريخ الطـب أصبحـت أنجـح الوسـائـل لتحـليل نظرة الانسان الى الكون ، وتتبع تطورها خلال ا‍لعصور المختلفة ، ولدراسة حضارته ومثله العليا ومخاوفه وعقائده وامكاناته فى تحقيقها. فان الانسان البدائى شعر ــ ولا شك ــ بحاجته الى العلاج قبل أن يدرك أنه انسان بوقت طويل. فكما قال أستاذنا الدكتور جورجى صبحى مستهلا احدى محاضراته : «إن أول صرخة ألم انطلقت من غضون الغابة كانت نداء الى طبيب».

وهنا ينبغى التمييز بين فن العلاج وعلم الطب. وقد كانا منفصلين بالنسبة لانسان المغارات. ويبدو أ بما لا يزالان كذلك بالنسبة لعدد كبير من المثقفين ممن يعتقدون بوجود مواهب معينة لدى بعض الناس يستطيعون بها أن يمنحوا الشفاء. ويفضلون عن طيّب خاطر اتباع أوامرهم على الاستجابة للنصائح التى يسديها الطبيب ... وهذا الاتجاه كان من الشيوع فى العصر القديم الى حد أن سترابو يروى أن المرضى فى منف وبابل كانوا يعرضون فى الطريق ليلتمسوا نصائح عابرى السبيل. ولا شك أن فن العلاج وجد قبل الانسان العاقل Homo sapiens وقبل أن تؤدى حاجات انسان العصر الحجرى الحديث ، وهو عصر الزراعة ، الى نشأة علوم الفلك والهندسة بوقت طويل. بل قبل اختراع الزراعة نفسها. وقبل أى نوع من أنواع النظم.

ولم يحاول هذا الفن أن يصبح علما الا بعد وقت طويل بالتأثير العكسى لعاملين هما :

أولا : التجمع التدريجى للملاحظات والتجارب التى لم يستطع الانسان أن يحفظها منفردة ، فجمعها على شكل نظريات عامة.

ثانيا : الخوف من المجهول الذى حض الانسان على محاولة تفسير الكون ، وقد أثرت تفسيراته — التى كثيراً ما تعدلت ، والتى كانت مصطبغة دائما بالعقائد الدينية — أثرت هذه التفسيرات فى النظريات الطبية ، ومنحتها طابعا ميتافيزيقيا دينيا متسما بالعقيدة والجمود ، بحيث كان الخروج عن هذه الحدود محفوفا بالمخاطر.

واذا كان الفكر الطبى فى عصر من العصور يتأثر حتما بالنظرة السائدة الى الكون ، فيجوز القول إنه لم يكن فى وقت من الأوقات سوى افراز للدين والفلسفة المعاصرين.

وانني آخذ فى هذا الصدد على المؤرخين اكتفاءهم فى بحوثهم ومؤلفاتهم بسرد تاريخ المعارك والفنون والملوك ، بدون إفراد فصل للطب الذى هو انعكاس انسانى لملمات العصر ومثله واحتياجاته من ناحية ، وما حققه من ناحية أخرى. وسأضرب مثلين للفائدة التى جناها التاريخ من الطب. أولهما أن نظرة الانسان البدائى وهو ما يزال يخضع لسلطان أوهامه ، أعنى نظرته الى الكون ، ساعدت علماء النفس على تفهم الكائن البشرى الذى لم تؤد البحوث الموضوعية الى تفسير كنهه بسبب ما يكتنفه من غموض ومن غرائز موروثة. وثانيهما قد يبدو ثوريا أو متناقضا فى ظاهره ، وسأعرض له فى بعض الاسهاب. إن القول المألوف هو القائل إن على الطبيب أن يعتمد على المؤرخ فى توضيح خلفية فنه التاريخية ، والقول غير المألوف ، الذى يكاد أن يعد إلحاداً ، هو أن للطبيب دوراً هاما فى مد المؤرخ بحقائق تاريخية صلبة وفى رد ما قد يكون انحرف فيه المؤرخ عن الاستقامة. وهذا القول الأخير هو ما أطمح الى البرهان عليه من خلال المعلومات التى استنبطت أخيراً من تفحص طائفة من مومياء المملكة الحديثة بالوسائل المستحدثة.

سألتمس حجتى الأولى من مومياء «سقنن ـــ رع» حاكم طيبة فى أواخر عهد احتلال الهكسوس الذين كانوا يحكمون البلاد من عاصمتهم «أفاريس» وهى الآن تل الضبعة بجوار فاقوس بالشرقية.

فقد حدث فى هذا العهد أن عاهل الهكسوس ـــ رغبة منه فى إثارة نضال يحتل من خلاله بقية البلاد ـــ افتعل سببا للتحرش بـ «سقنن ـــ رع» فاشتعلت الحرب التى أنهت حكم الهكسوس فى مصر.

لقد وجدت مومياء «سقنن ـــ رع» فى طيبة بعيداً عن جبهة المعارك ، ملتوية وكأنها محتضرة فى ألم مضن ، وجمجمتها مصابة بخمس اصابات بشعة كل منها قاتل. فمن قائل إن الجريمة كانت فعلة لصوص غدروا بهذا الأمير فى طيبة. ومن قائل إنه هلك فى اشتباك مع العدو شمال الدلتا ، وانه نقل بعد وفاته الى طيبه مسقط رأسه ومقر حكمه لدفنها بها.

ظلت الحقيقة محور نقاش سنوات طويلة الى أن حسم الأمر بحاث استعانوا بالأطباء منتهجين منهجا أقرب الى منهج الطبيب الشرعى منه الى منهج عالم الآثار. فقد كانت مجموعة الأثريين الذين ينقبون فى تل الضبعة وكر الهكسوس كشفت عن أسلحة ذوات صفات تميزها عن أسلحة المصريين ، فخطر لهم مضاهاة هذه الأسلحة بالجروح التى بالجمجمة. فأسفرت المقارنة عن مطابقة الأسلحة مطابقة تامة لأشكال الجروح وأحجامها واتجاهاتها ، ثم أن الأشعة السينية على يد طبيب آخر أظهرت مبادىء تندب فى العظام المكسورة. فاتضح أمران: أولهما أن «سقنن ـــ رع» قتل فى أثناء القتال مع الهكسوس ، وثانيهما أن الموت لم يوافه الا بعد فترة من شأنها السماح بنقله من شمال الدلتا الى طيبة حيث دفن ، وحدوث الشلل فى أطرافه والتوائها الملاحظين فى المومياء ، فزالت بذلك حجج المعترضين على كونه أول من رفع لواء الثورة الوطنية.

وسنتلمس بقية حجتنا من بعض موميات الأسرة الثامنة عشر ، ولنبدأ بسرد مطافها الى أن أودعت بالمخابىء التى وجدت بها. فقد تعرضت هذه الموميات الى سرقات لصوص المقابر ، الأمر الذى دفع كهنة الأسرتين الواحدة والعشرين والثانية والعشرين الى نقلها من مخبأ الى مخبأ آخر حتى انتهت الى حيث وجدت مؤخراً ، بعد أن أعادوا لف تلك التى تركها اللصوص عارية ، وبعد أن كتبوا على اللفائف والأربطة التى أغلفوها بها من أسماء أصحابها ما استطاعوا معرفتها ، فأصبحت هذه الكتابات هى الوسائل الوحيدة المتاحة اليوم للتعرف عليها.

ستساعد هذه المقدمة على تفهم مثلنا الثانى ، وهو المستمد من مومياء تحتمس الأول الذى وصل بجيوشه منتصراً عبر حدود النوبة ونهر الفرات ، وكان من أعظم القادة العسكريين الذين عرفهم التاريخ. وقد اختلف المؤرخون فى تقدير مدة حكمه من خلال انجازاته وحروبه ، ويتراوح هذا التقدير بين عشر سنوات وثلاثين سنة. أى أن سنه كانت عند وفاته سبعة وعشرين سنة أو تزيد.

لقد فوجىء من فحص عظام المومياء التى تحمل إسمه بإنها لا تحتمل تقدير سنه بأكثر من تسع عشرة سنة ، وبأن وضع ذراعيها يختلف عن وضع ذراعى موميات عصره. وهما أمران خطيران لا يتيحان للدارس إلا احتمالين اثنين ليس لهما ثالث : إما أن التاريخ خاطىء ، وإما أن المومياء الموجودة فى المتحف المصرى ليست مومياء تحتمس الأول.

سنقتبس مثلنا الثالث من لغز أو قل ألغاز حقبة أخناتون ، ومن سماته الغريبة كما صوره الفنانون من معاصريه: الوجه المستطيل ، الذقن الطويل المدبب ، الوجنتين العاليتين ، الشفتين السميكتين ، الثديين المتضخمتين ، البطن المترهل ، الأرداف السمينة ، الخ ...

هل كان شكله حقيقة كما يبدو فى صوره وتماثيله أم كان شكله هذا مفتعلا ليرمز الى معان دينية نجهلها؟ إنما الاجابة على هذا السؤال اجابة حاسمة مستحيلة ، لاختفاء مومياءه انتقاما منه من جانب كهنة آمون. أو هكذا يظن.

ولكن المقارنة بين مقاييس رأس مومياء مودعة فى متحف القاهرة ، مسجل عليها اسم امنحوتب الثالث والد أخناتون ، وبين مقاييس رأس أخناتون ، تؤيد وجود رابطة وراثية بين الاثنين.

وقصة هذه المومياء طريفة ، فقد وجدت فى مقبرة أمنحوتب الثانى ، فى تابوت لم يذكر عليه ما يدل على أية علاقة بينه وبين أمنوفيس الثالث. وهذا التابوت كان هيكله مجهزاً لرمسيس الثالث ، وغطاؤه مجهزاً لسيتى الثانى. وكلاهما حكم مصر بعد أمنوفيس الثالث بمائتى سنة.

والسبب الوحيد لنسبة المومياء الى أمنوفيس الثالث ، وجود كتابة على اللفائف تسجل اعادة الدفن عندما أعيد لف اللفائف فى عهد الأسرة الثانية عشر.

ولا يخلو الأمر من أن التحقق من شخصية الموميات الملكية التى كان قد عبث بها العابثون ، لم يكن فى متناول الكهنة. فاذا كان الأمر كذلك فانه لا يخلو الأمر أيضا من أن تكون هذه المومياء مومياء أخناتون الضائعة. وعلى كل حال فإنه يتعين إجراء فحص مستفيض لهذه المومياء قد يسهم فى حل لغز أخناتون حلا نهائيا.

وهناك مومياء أخرى من الموميات التى كشف عنها فى مقبرة أمنوفيس الثانى ، أثارت جدلا طويلا ، ونعت إليوت سميث صاحبة هذه المومياء بـ «السيدة العجوز». وقد ظن فى آن ما أنها الملكة حتشبسوت ، ولكن الشبه بين هذه المومياء ومومياء «ثويا» والدة الملكة «تى» وهو ما دعمته مضاهاة

صور جمجمتيهما بالأشعة السينيه ، دفع طائفة من باحثى جامعة ميشيجان الى مقارنة مقاييسهما بمقاييس عشر ملكات أخرى ، فكانت المقارنة تؤدى دائما الى نتيجة واحدة وهى أن المومياتين اللتين تتقاربان أكثر من غيرهما هما مومياء «السيدة العجوز» ومومياء «ثويا» والدة الملكة «تى».

ثم أن تفحص الصور الطيفية لخصلة من شعر «السيدة العجوز» وخصلة من شعر «تى» المحفوظة فى كنز توت عنخ أمون ، أكد المطابقة التامة بينهما وهذا ما يدل دلالة قوية على أن «السيدة العجوز» هى الملكة «تى».

وآخر خيط فى عقدة أسرة أخناتون أسهم البحث الطبى فى حله ، هو العلاقة التى تربط بين خليفيه «سمنخ - كا - رع» و «توت - عنخ - أمون». هذا أنه وجدت سنة ١٩٠٧ مومياء قيل عنها — أول الامر — إنها تخص الملكة «تى». ثم انتقل الرأى الى أنها تخص «أخناتون» وأخيرا نسبت الى «سمنخ - كا - رع» أول خلفاء أخناتون.

وعندما كشف عن مومياء «توت - عنخ - أمون» قورنت بمومياء «سمنخ - كا - رع» فمال البعض الى أنهما شقيقان ، فى حين أن البعض الآخر أكد أن «توت - عنخ - أمون» ابن الملكة «تى» والدة أخناتون.

ولكن باحثى مدرسة ليفربول عندما قارنوا وجه «توت» من واقع تابوته ، بوجه أخناتون من واقع تماثيله ، لم يجدوا أية علاقة بينهما. فى حين أن شبها كبيراً يربط بينه وبين وجه «توت» كما يبدو على تابوته الذهبى ، وأكد هارسون وكونلى هذه العلاقة عندما وجدا شبها كبيراً بين مقاييسهما ومطابقة فصائلهما الدموية ، مما لا يكاد يترك مجالا للشك فى قرابتهما.

إن هذه الأمثلة المعدودة تبين كيف أن العلوم الطبية قد تسهم فى معرفة التاريخ. فتؤكد بعض مزاعمه ، وتزعزع بعض عقائد كانت تعد من أرسخ الحقائق ، كشخصية الفراعنة الذين أراد الكهنة صونهم من الهلاك ، فأعادوا لف أجسادهم بواعز من البر والتقوى. والسؤال الذى يحيرنا هو: كيف تجرأ أهل الدين على تسمية فراعنة لم يتأكدوا من حقيقة شخصياتهم إلا إن وافقنا على أن المومياء بذاتها لم تهمهم بقدر ما كان يهمهم الاسم التى لقبت به.

اننا نعرف قيمة الأسماء فى الفكر المصرى القديم ، فقد آمن فلاسفتهم بأن لا وجود لغير المسمّى. وأن مجرد ذكر إسم شىء يجلبه الى الوجود. وقد تهالك الفراعنة — رغبة منهم فى البقاء الأبدى — على اغتصاب تماثيل غيرهم مكتفين بمحو أسماء هؤلاء واستبدال أسمائهم بها ، معتقدين أن هذا الاستبدال كفيل ببعثهم فيها.

ثم أنهم لم يتحرجوا عن تزوير صورهم ليبدوا فى صحة وشباب ، وإن كانوا شيوخا فى أقصى حدود المرض. فهل نستطيع مثلا التعرف على رمسيس الثالث الذى يبدو فى صوره شابا رشيقا نشيطا رياضيا من مومياته التى أثقلتها البدانة. وهذا شأن مرنبتاح ، وتحوتمس الثانى ، وغيرهما. ومن يستطيع من واقع صور «سبتاح» تصور الأعرج الكسيح الذى نعرفه من مومياته ؟ ثم لننظر الى النبلاء ، فقد درجوا على رسم صورتين لهما فى مقابرهم : صورة تمثلهم على ما كانوا عليه ، وصورة أخرى تمثلهم فى أجسام مثالية الجمال رغبة منهم فى تقمص هذه الأشكال فى حياتهم الأبدية.

ولم يتورع الكهنة المحنطون عن العبث بالموميات ، وعن انتاج موميات

ينقصها بعض العظام ، أو عن استبدال عظام حيوانية بالعظام الاصلية ثم تغليفها فى شكل يروق الأقارب ويخفى ما عبثوا به.

فاذا كانوا حقا يعتقدون أن الصورة أو الاسم أهم من الحقيقة بل أقرب اليها ، وأن الجسد ما هو إلا حامل لإسم هو الحقيقة التى على الروح التعرف عليها وإذا كان جسد أخناتون — كما يبدو — سجل عليه اسم أمنحوتب الثالث ، فان الكهنة لم يكتفوا باختلاس جسد أخناتون ، ولكنهم بالاضافة ، تفننوا فى الاختلاس ، فأهدوه الى شخص آخر هو والده.

قد تبدو هذه الأفكار خطيرة ، ولكن ما يدفعنا اليها هو صعوبة تخيل حدوث مثل هذه الأخطاء الجسيمة ، أو هذا الاهمال الفادح ، أو قل هذا التدنيس غير المعقول فى تسمية الموميات الفرعونية. وهى مقدمة على أنها محض فروض صالحة للنقاش.

ثم أنه يؤخذ على تأريخ الطب ، وعلى تأريخ العلوم عامة ، فى شىء من الازدراء انه انما تأريخ للأخطاء ، وهنا يتعين علينا تعريف ماهية الخطأ وتمييزه عن الحقيقة. إذ أن أى رأى لا يسلم بأن حقيقة اليوم قد تكون خطأ الغد ، إنما يصدر عن جهل أو حماقة أو تعصب أو ضيق أفق. بل نستطيع أن نضيف أن العلم الحديث برهن على قضية مذهلة ، وهى أن ما نتخيلها حقيقة قد تتفق مع نقيضها.

فما قولنا فى نظرية استحالة تفتيت الذرة التى بنيت عليها الكيمياء التقليدية وما تزال ركنها الأساسى ، وان كان تفتيتها أصبح اليوم حدثا عاديا.

وما رأينا فى النظريات المتتالية التى ادعت تفسير الضوء ، متأرجحة بين الموجة والجزيىء ، الى أن ثبتت استحالة تفسير كل مظاهر الضوء بأية منهما. فوضعت نظرية مزدوجة جمعت بينهما. وهذا ما عبر عنه ابن الهيثم منذ قرون فى قوله :

«وكل مذهبين مختلفين فإما أن يكون أحدهما صادقا والآخر كاذبا ، وإما أن يكونا جميعا كاذبين والحق غيرهما جميعا ، وأما أن يكونا جميعا يؤديان الى معنى واحد وهو الحقيقة ، ويكون كل واحد من الفريقين الباحثين ... وقد قصر فى البحث ... فعرض الخلاف فى ظاهر المذهبين وتكون غايتهما عند استقصاء البحث واحدة. الخ ...».

وقد سبقنا الأقدمون فى الشك فى أبدية القوانين. واليكم قولا آخر لابن الهيثم فى هذا :

«تخيلنا أوضاعا ملائمة للحركات السماوية ، فلو تخيلنا أوضاعا أخرى غيرها ملائمة أيضا لتلك الحركات ، لما كان عن هذا التخيل مانع ، لأنه لم يقم البرهان على أنه لا يمكن أن يكون سوى تلك الأوضاع أوضاع أخرى ملائمة مناسبة لتلك الحركات».

وهذا معناه أن النظريات ، وشأنها شأن القوانين ، انما هى هوالك ــ سلع «مستهلكة» علينا التخلص منها عند ايجاد ما هو أفضل منها.

ويزخر تاريخ الطب بمثل هذا التأرجح بين تيارات مختلفة. فقد عد الانسان ــ أول الأمر ــ العارض مرضا فى حد ذاته. ثم نسب المرض الى أرواح شريرة أو آلهة غاضبة احتلت العضو المؤلم ، فتصور الجسم مكونا من جمهرة أعضاء مستقلة. ولعل هذا التصور هو سبب ظاهرة ، تدهشنا اليوم ، هى تخصص الكثيرين من أطباء قدماء المصريين فى أمراض عضو دون غيره.

ثم تحول الأطباء إلى عزو المرض الى عناصر مرضية تجرى فى الجسم ، واتخذ الاغريق تلك الفكرة أساسا لنظرية الاخلاط ، ثم وسعوها فأخذوا بأن طبيعة الجسم تختلف حسب نسب الأخلاط بها. وهذا ما عبروا عنه بالمزاج.

وتخلخل هذا التصور تحت ضربات التشريح المرضى التى وجهها اليه امثال مالبيجى ولاينيك ، وأجهز عليه باستور بكشفه عن دور الجراثيم ، وعندئذ ولى المزاج الادبار الى الخلف ، وسيطرت الأعضاء على الأخلاط.

وعادت الأخلاط الى الصدارة متنكرة فى زى الجلوكوز والبولينا والهرمونات والاجسام المضادة ، على يد كلود برنار وفيدال واخصائى الغدد الصم وعلماء المناعة.

ولكن هذا الاجتهاد يبوء بالحيرة لاستحالة حصر المرض بتعريف دقيق. فهل مرض التيفود هو مجرد اقتحام جرثومة أبرز للجسم ، مع أن الجرثومة قد تدخل الجسم دون احداث مرض ظاهر؟

هل هو الحمى التيفويدية ، فى حين أن الجرثومة قد تسبب صوراً مرضية غيرها؟

كيف تفسر ظاهرة الطاهية «مارى التيفويدية» التى تسببت فى ثلاث وخمسين اصابة تيفود وثلاث وفيات دون أن تصاب بسوء قط؟

هل نقنع باجابة سلبية ، ونكتفى بمجرد القول بأنه لا تيفود دون جرثومة ، ونقبل آراء أمثال كرتشمر والأبقراطيين المحدثين والمنجمين الذين يربطون بين تركيب الجسم والطبع والفلك والاستعداد للمرض؟

قد تكون الإجابة لهذه الأسئلة أن اللغز كامن فى كتلة مكرسكوبية غائرة فى أعماق الخلايا ، هى «الجين» أو الورثة. وقد أوشك اغلاق هذه اللولبة المفرغة أن يتم الآن ، بعد أن ربط الجين وهو جزء من العضو ، بالخمائر المنفذة لأوامره وهى تمثل الأخلاط.

ونعيد الآن سؤالنا : ما هى فائدة دراسة الطب القديم غير إدراك نسبية النظريات ، وهى أهم دروس التاريخ؟

والحقيقة هى أن التأمل فى أى فن بدائى لا يجلب أية فائدة ، ولا يهز أية مشاعر ، إلا إن شمل التأمل جميع عناصر الحضارة التى اتُخذ منها. وما الطب سوى مركب من كل تلك المفردات.

أما اذا انخرطت هذه العناصر فى عقد يجمع شملها ، فقد نجد فيها تناغما يوازى تناغم ألوان وأصوات الانجازات الفنية ، قد يهز فينا المتعة ، لأنه نابع من أعماق هيكلنا الثقافى.

غير أننا نطمح الى أكثر من مجرد اللذة الذهنية. فاننا نطمح ، على الصعيد العلمى ، الى إدراك الأخطاء ، دون تكابر ، لنستزيد بها حكمة وخبرة. حيث إن «اللى فات قديمه تاه» على رأى أهل البلد.

وأول الأخطاء التى يقع فيها المتحمسون للجديد ، هو الإيمان بأن كل مستحدث جديد ، بينما الكثير من كشوفنا كان معروفا للقدامى. وقد عبر الاسبانى «لاين انترالجو» عن أسفه لنسيان الماضى حين قال :

«لئن ظل القراء يطالعون كتابات ابن النفيس لما انتظر العالم «هارفى» قرونا قبل إدراك حقيقة الدورة الدموية ، ولئن اطلع طلاب العلم على ما نشر بين سنتى ١٨٧٠ و ١٩٣٠ لوجدوا فيه معلومات اختفت تماما من أذهان أطباء اليوم».

وثانى هذه الأخطاء هو التوهم بأن كل مستحدث نافع فى حين أن تاريخ الأمراض يزخر بعلل وتشويهات خلقها الطب خلقا بمستحدثاته .

وثالثهما الاكتفاء بما يؤدى فائدة مباشرة فى حين أن تقدم الطب مرهون بتقدم العلوم الجانبية له.

ورابعها هو القطع بأن العلم الذى يملى على الطالب اليوم ، هو نهاية المعرفة التى لا يجوز الشك فيها. بينما أن الشك خميرة التنافس والنقد والبناء.

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فإن دراسة مناهج البحث والكشف تخبرنا بالظروف الملائمة للوصول الى مثل هذا الكشف فى المستقبل. فان البحث العلمى يبتدىء عادة بمشاهدة الأمور الطبيعية او اثارتها ، وهو ما يسمى بالتجربة. ثم فى خطوة تالية تمحص تلك الحقائق لاستخلاص علاقة تربط بين المشاهدات ، وقد نسميها قانونا أو قد نسميها نظرية ، وهذه حقبة الفحص ثم يستنبط بالقياس نتائج يفضى اليها هذا القانون. ثم تجرى مشاهدات أخرى أو تجارب جديدة لاختبار صحة القانون ، وهذه حقبة الاختبار فإن وجد تناقض بين الواقع والقانون نقح القانون ... وهكذا ، وتتجلى فى هذه العملية المتسلسلة موهبة الباحث ، وقد تسمى عبقرية أو ذكاء أو الهاما ، وهى التى تميز الباحث المبتكر.

وقد تكون الملاحظة نتيجة لخطأ طرأ أثناء تجربة ، كما حدث عند استعمال ماء الصنابير بدلا من الماء المقطر لتركيب محلول «رنجر» نتيجة للكسل والاهمال. وهو الخطأ الذى أدى الى معرفة دورة الكالسيوم فى عمل القلب.

ولكن هذه الأخطاء لا تجدى الا اذا لاحظها ذهن يقظ مهيأ للبحث. واذا كانت عملية الاستنباط تتم أحيانا فى غير وعى ، أثناء حلم يقظة كما حدث لـ «كيكولى» عندما تصور الصيغة التركيبية لجزىء البنزين ، فانما يحدث هذا للمنهمكين فى التفكير فى بحوثهم.

ومن الطريف أن رب نظرية خاطئة تؤدى الى كشف خطير ، كالظن أن صبغ الجراثيم ضرورى للقضاء عليها. فبعد أن نجح «دوماجك» فى إبادة بعض الجراثيم باستعمال البرونتوزيل ، وهو أحمر اللون ، وجد أن فاعلية هذا المركب كامنة فى جزء غير ملون من جزيئه ، ففتحت هذه المشاهدة الباب

على مصراعيه أمام علم «الكيموثيرابى» أى العلاج بالمركبات الكيماوية.
وهذا ما يذكرنا أيضا بما يدين به علم الفلك لعلم التنجيم الزائف ، وعلم الكيمياء لمحاولات تحويل المعادن البخسة الى ذهب.

وانما تتجلى فائدة الدراية بالتاريخ تماما فى عمل الطبيب الميدانى. فالتاريخ هو الذى يعرفنا بما فعلته الأمراض والأوبئة بمشروعات كان من شأنها تغيير مجرى العالم. كفشل أول محاولة لفتح قناة بناما ، أو كتفتيت جيوش جبارة ، أو الفتك بحضارات بأكملها.

كما أن ادراك الطرق التى سلكتها الأوبئة من مواطنها الى بقية الأقطار كانتشار الحمى الصفراء والملاريا من افريقيا الى امريكا ، أو كزحف الطاعون والكوليرا من آسيا الى العالم ، ينبئنا بوسائل تجنب عودتها الينا. وهذه المعرفة هى التى أملت انشاء مراكز الحجر الصحى. التى أقيم أولها فى جزيرة القديس لازار بجوار البندقية ، فكان اسم هذه الجزيرة الأصل فى تسمية حى الاظاريطا أو الماظاريطا بالاسكندرية.

ومن المخزى أن التقدم الحضارى قد يأتى بأضرار صحية جسيمة وهذا ما سمى فى سخرية «مرضية التقدم». فقد سببت الثورة الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر هجرة الحقول ، وتكدس الطبقات الكادحة فى مساكن داخل المدن تفتقر الى الوسائل الصحية ، وبالتالى سببت أمراضا اجتماعية وغذائية وصناعية ، لا سيما بين الأطفال والنساء. وكان رد فعل المجتمع سن القوانين ، وابتكار وسائل وقائية. فنشأ طب الصناعات ، الذى اولاه ما أحرزت الصناعة ما أحرزته اليوم من نجاح.

ولن نتحدث عن نجاح الوسائل العلاجية والوقائية الحديثة ، وإسهامها فى الانفجار السكانى وفى زيادة استهلاك الطعام ، وبالتالى فى انتشار

المجاعات. وهذا ما يهددنا اليوم فى مصر ، بالاضافة إلى احتمال انتشار البلهارسيا الى مواقع جديدة عليها نتيجة للتوسع فى الرىّ والزراعة ، وهى مشكلة سبق أن ظهرت فى وادى كوم امبو ونبه اليها استاذنا الراحل الدكتور محمد خليل عبد الخالق ، عسانا لن ننسى.

• • •

لعلى نجحت فى توضيح جانب من تعليم ماضينا ومن فائدة دراسته. واننا نواجه اليوم كل تحديات القرن : اتساع الرقعة الزراعية ، فتح مناجم الحديد والفحم ومعادن أخرى ، صناعات تفرغ فضلاتها فى رئاتنا وأمعائنا ، انفجاراً سكانياً خطيراً ، ازدياد حاجاتنا من الغذاء ، انشاء صناعات ذرية ، لا تخفى أخطارها على أحد.

ولذا فإنى ، اذ أقدم هذا المؤلف المتواضع ، أهيب بالسلطات أن تعير ماضينا العناية التى يستحقها ، لتنير به المستقبل على ضوء الماضى ، و «السعيد من اتعظ بغيره».

الباب الأول

من البداية حتى عصر الفراعنة

ان ما نعرفه عن تاريخ مصر لا يتخطى مع الأسف عهد مينا مؤسس الأسرة الأولى وموحد شطرى الوادى. الا أن الحضارة العظيمة التى ازدهرت فى عصره لم تكن وليدة وقتها ، وانما جاءت ثمرة لجهود عهود طويلة قدرها بعض المؤرخين بتسعة وخمسين قرنا ، تمتد من أول العصر الحجرى الى اختراع الكتابة والنحو والحساب والهندسة والفلك. وكلها علوم كانت قد وصلت فى عهد مينا الى درجة لا بأس بها من الرقى. فقد أتاحت تلك الحقبة الطويلة للعلماء وضع التقويم الشمسى الذى أكتشفه المصريون وطبقوه سنة ٤٢٤١ ق م ، والذى ما يزال يستعمل حتى الآن بعد التعديلات التى أدخلها عليه يوليوس قيصر ثم البابا غريغوريوس.

أما عن الطب فليس لدينا من الوثائق عنه فى هذه الفترة التمهيدية الطويلة سوى ما وجد من الكسور والجبائر فى بعض المقابر التى ترجع الى

ما قبل الأسر. ولا نعرف عنه سوى ما يمكن استنباطه من المسلك الذى سلكه فى كل الحضارات الزراعية المعروفة ، لما فى تلك الحضارات من التشابه فى عقائدها وطقوسها ومراسمها وعاداتها ، مهما كان تباعدها فى الوقت أو المكان.

وفى دراسة هذا الطور الأول من أطوار التاريخ الذى سبق أى تدوين للحوادث أو المعلومات يمكن الاستعانة بالوسائل الآتية :

أولا : ما نلحظه من تشابه فى تتابع حلقات التاريخ وأطواره بالنسبة للشعب الواحد فى عهوده المتتالية ، وبالنسبة لشعوب معاصرة تختلف من حيث درجة التخلف أو التقدم ...

ثانيا : التشابه بين تطور ذهن الانسان خلال الفترة الممتدة من الطفولة الى البلوغ من جهة ، وتطوره من عهد الحلقة المفقودة الى الانسان المعاصر.

وليس من شك فى أن الانسان البدائى ـــ عند أول ادراكه ، وحين وجد نفسه محاطا بقوى تبدو له تارة كأنها تخبط خبط عشواء ، وتارة أخرى توحى إليه بأنها تخضع لنظام دقيق وتسعى نحو هدف ثابت ـــ ليس من شك فى أن تفكيره الطبيعى حضه على أن ينسب كل حدث من الأحداث الى ارادة خاصة ، وأن يؤله كل ما يحدق به من قوى ... ومن هنا خلق أول الأديان وهو الروحانية Animism الذى يرى روحا فى كل شىء .. بل أكثر من ذلك ، فإن «يرنج» يرى أن الإنسان عندما بلغ أول درجة من درجات الوعى لم يميز فى بدء الأمر بين الحياة والجمود ، ولا بين ذاته ومحيطه ، ولا بين الحياة والموت ، بحيث ظل يعتقد بوجود حياة مشتركة بينه وبين الطبيعة .. حياة تتسم بالتضامن الوثيق ، ولذا فقد نسب معانى خاصة الى حركات

الكواكب وهجرة الطيور والرعد والبرق والانهار والأشجار ... الخ. واعتقد فى علم الفلك والتنجيم ، وفى علاقة الأحجار الكريمة والألوان بالأمزجة ، وفى التكهن بالغيب بملاحظة أحشاء الطيور ... الى غير ذلك من الخرافات التى أدت بدورها الى ظهور محاولات للسيطرة على هذه العوامل ، وبالتالى للسيطرة على العالم بأكمله.

وهناك ظاهرة أخرى تميز بها الانسان البدائى. وهى انه لم يمكنه ادراك فكرة الموت. فقد كان يعتبره نوما طويلا يمكن للميت أن يستيقظ منه ، فيزور الأحياء ، ويطالبهم بحقوقه وأملاكه أثناء نومه. ومن هنا كان تقديم الأطعمة والملابس ، بل الزوجات والخدم ، لتهيئة كل أسباب الراحة والترف للمتوفى فى قبره. ومن هنا كانت عمليات السحر لاعادة الحياة الى ما كان يحيط به فى كهفه لاسترضائه ، وللحيد به عن فكرة العودة.

وكل الوسائل التى تعتمد على التأثير أو السيطرة بواسطة المشابهة الكاذبة أو الارتباطات المزعومة بين أحداث لا رابطة بينها ، كل هذه الوسائل تسمى بالسحر ، وكانت وقفا على الساحر ، الذى لا يعهد بسره إلا لصاحب الحظوة من تلاميذه أو لمن يمارس السحر مثله. وكان الساحر الطبيب يختار لمميزات خاصة فيه ، مثل قوته أو حكمته ، أو تشويهات معينة به ، أو اصابته بالصرع ، أو حدوث أعجوبة فى حياته ، كأن تعضه حية فلا تصيبه بسوء ، وكذلك بفضل تنبوءات أو أحلام يكون هو موضوعها. وهنا تجدر ملاحظة أن الاشتقاق الفارسى لكلمة Magie الفرنسية أو لكلمة Magic الانجليزية معناه «العلم» وأن كلمة Mage/Magician أى الساحر ، كان معناها «العالم».

والطرائق التى كانت تستعمل فى السحر كانت تصادف ولا شك نجاحا

كبيراً ، والا فما كانت تزدهر وتدوم. وقد شاهدت مثالا لفاعليتها فى أعالى النيل ، فقد أتى رجل يوما الى أحد المستشفيات ، وكله ايمان بأن المنية ستوافيه فى موعد معين. وسر ايمانه هذا هو أنه — كما قال — اجترأ على شيء محرم «Taboo». واذا كان غريبا أن الطبيب لم يوفق فى اقناعه بأنه سليم من جميع الأمراض ، فالأغرب من ذلك أنه توفى فى الموعد الذى كان يتوقعه .. ثم أن نتيجة التشريح لم تسفر عن معرفة سبب الوفاة .. وهذه الحالة — كما قلت — ليست الا على سبيل المثال ... فغيرها كثير الحدوث.

الحقبة الثانية : تقارن بداية فن العلاج عهد تلك الخزعبلات. وتأتى بعد ذلك الحقبة التى عزا فيها الآدميون المرض الى غضب آلهة معينة. وفسروه بأنه عقاب فرضته على المغضوب عليهم. وهذه العقيدة لم تنشأ إلا عندما تطورت الأديان «الروحانية» التى ألهت جميع الكائنات ، الى أديان إلهية ، سواء كانت هذه الأديان موحدة أو مشركة.

ويرى علماء النفس الفرويديون أن هذه الظاهرة — أى رد المرض الى غضب الآلهة - ما هى الا تعبير لمركب أوديب أو مركب الخطيئة. كما يقول علماء السلالات إن هذا التدرج نتج عن الخوف من شيخ القبيلة أثناء حياته وبعد مماته ، ثم عن اتخاذه إلها للقبيلة لاسترضائه ، وترديد القصص والأساطير عن حياته الى حد صبها فى صلب المذهب. وقد حصل هذا التطور فى أوائل العهد الحجرى الحديث ، أى فى غضون عهد الفراعنة. ففى هذا العصر تعلم الانسان الزراعة ، فأدت احتياجات الحياة الجديدة الى المعيشة الجماعية ، المعيشة التى قوامها تقييد الحرية الفردية للبحث عن

مصلحة الجماعة ، وأتخذ هذا التقييد شكلا دينيا بفرض الحظر على الكثير من المعانى والأشياء التى تضر المصلحة العامة.

ثم تخطى الدين حقبة عبادة إله القبيلة عندما حاول من خلف مينا موحد الشطرين ضم آلهة القبائل تحت لواء إله عام للدولة. وربما كان أول من حاول تنفيذ هذه الخطة عمليا كهنة هليوبوليس ، وعلى رأسهم الطبيب الكاهن المعمارى «إمحوتب». وربما كانت التحفة التى خلفها فى منف ــ ملتقى شطرى الوادى ــ وهى مجموعة أهرام سقارة ومنزلى الشمال والجنوب ، أول رمز للاتجاه التوحيدى الجديد .

دامت هذه الحقبة ــ حقبة الالهة وخلافاتهم ــ طوال العصر الفرعونى. وفيها ازدهر الطب ، فاصطبغ بشكل ملحوظ بفلسفته اللاهوتية بالرغم من كفاحه المستمر للتخلص منها.

أما **الحقبة الثالثة** فهى حقبة القرون الوسطى الميتافيزيقية التى حلت خلالها المعانى الميتافيزيقية محل الالهة ، وجاءت بعدها **الحقبة الرابعة** وهى الحقبة الواقعية الحالية. وكانتا الحقبتين الثالثة والرابعة لم تليا الأولى والثانية الا فى القرون الوسطى ، ثم فى القرن الثامن عشر.

ومع ذلك فان فى هذا التقسيم مبالغة فى التبسيط ، اذ أن أساليب التفكير الأربعة وجدت جنبا إلى جنب فى كل فترة.

فلا شك مثلا فى ان المستنيرين من الكهنة الفرعونيين كانوا يعلمون الكثير من العلوم المضبوطة مثل الرياضيات. وانهم كانوا يدينون بفلسفة وعقائد سرية متقدمة بالنسبة لما كانوا يلقنونه للعامة. وإلا لما أعجب بهم افلاطون وأبقراط وغيرهما من الإغريق المنطقيين.

واذا تأملنا فى البشرية الحالية وجدنا آثار جلية فى العادات وفى اللغة

حتى فى أرقى الطبقات وأكثرها ثقافة ، لكل من التفكير الروحانى واللاهوتى والميتافيزيقى والتجريبى. وإن كانت نسبة كل نوع منها تختلف باختلاف الطبقات والبلاد والعصور.

وقد وصلت الينا معلومات كثيرة عن طب قدماء الآشوريين واليهود والهنود وغيرهم ممن جاوروا الحضارة المصرية أو عاصروها. وهو يختلف من حيث الطابع الخاص باختلاف كل فئة من هذه الفئات.

ففى بابل ، اذا أغفلنا رواية هيرودوت عن عرض المرضى فى المرافق العامة حتى فى القرن الخامس ، فان النصوص المسمارية الموجودة تدل على الاعتقاد حينذاك بأن علة المرض هى العفاريت ، وأن علاجها هو التعاويذ. كما تفتقر الى أى دليل لمعرفة تركيب الجسم البشرى أو وظيفة أعضائه معرفة منظمة ، أو لأى تفكير مرتب فيه. ولكن البابليين كانوا يتميزون عامة بدقة تبويب معارفهم ، وبتطبيق معلوماتهم فى الرياضيات والفلك على ثقافتهم الطبية. وقد حدد قانون حمورابى (القرن ١٩/ ٢٠ ق م) «تعريفة» الأتعاب التى يتقاضاها الأطباء والجراحون عن كل خدمة يؤديها ، كما حدد بغاية من الدقة العقوبات التى توقع عليهم فى حالة خسارة عضو أو جزء من الجسم ، مما يدل على تقاليد سابقة تمتد الى زمن بعيد. وفى النصوص المسمارية جاء ذكر عدة أطباء مثل «أردانانادى» و «ايسارحادون» ابن سنا كريب نفسه.

وعند اليهود نجد فى كتبهم المقدسة معلومات دقيقة فى علم الأمراض وعلم الصحة ، وان كان طبهم عبارة عن مجموعات من طب البلاد المجاورة ، ونصائح صحية للكهنة وغيرهم. وقد ظل الطب آلهيا أو كهنوتيا .. وليس هنالك ما يدل على القيام عندهم بتعليم عملى أو اكلينيكى.

وازدهرت فى الهند ، تبعا للـ «جاناكا» التى ترجع للقرن الخامس ، مدرسة شهيرة هى مدرسة تاكساسيلا. وكان علم الطب «ايورفيدا» وقفا على الطبقات العالية. وكان يعتمد على قراءة وتفسير المؤلفات ، وعلى بعض الدروس الاكلينيكية. وقد عرف أطباء الهنود مبدأ الوراثة فى الأمراض ، وأمراض الدرن والبول السكرى بنوعيه: النوع الذى يصيب الشبان ، والنوع الذى يصيب الشيوخ. وعلم الأجنة وصحة الحوامل ، وما يزال الطب «الفيدى» يدرس ويطبق فى الهند الى اليوم. وقد ورثنا منه عدة عقاقير مفيدة آخرها جذور الروولفيا المستعملة فى علاج ضغط الدم والأمراض النفسية.

الا أن أقدم المؤلفات وأكثرها عدداً ، والوحيدة التى يمكن أن تلقى ضوءاً على تلك العصور النائية ، هى المؤلفات الفرعونية.

وقد توهم تسمية طب هذه الفترة بالطب الفرعونى بأن حالته كانت مطردة التقدم أو ثابتة الجمود. والحقيقة عكس ذلك. اذ أن حالة مصر ما فتئت تتطور فى مدة لا تقل عن ٤٠٠٠ سنة ، فقد مر عليها عهد آلهة القبيلة ، ثم عصر مينا الموحد ، ثم حضارة الأهرام المزدهرة ، ثم وقعت فى فوضى المدة الانتقالية الأولى ، وازدهرت من جديد فى عصر المملكة الوسيطة ، حيث نشأت طبقة متوسطة مثقفة. ثم وقعت فى فوضى ثانية ، وعاد مجدها بعد أن طرد أحمس الآسيويين ، تحت حكم تحوتمس واخناتون وتوت عنخ آمون ورمسيس فاتسعت مصر من الهند الى الحبشة. ثم وقعت تحت سيطرة الفرس والمقدونيين. وعاد الكهنة فى العصور المتأخرة الى سلطانهم. ورجع المصريون الى السحر والشعوذة. وما فتئت مصر طول هذه المدة تغزى ، فتغزو هى فاتحيها ، من آسيويين أو حبش أو ليبيين أو نوبيين. وتتبادل العلوم والفنون والأديان معهم ، مما يجعل من المستحيل حصر تاريخ

هذه المدة فى خط سير واحد أو فى اطار واحد.

ولذا فاننا ، اذا تأملنا الطب الفرعونى وجدناه خليطا من نزعة واقعية ان لم تكن علمية. ومن نزعتين أخريين متقاربتين. تنتمى احداها الى السحر والثانية الى الطب الكهنوتى.

الباب الثانى

السحر والطب الروحانى

اننا نخطىء أيما خطأ اذا ظننا أن الايمان بالسحر وما اليه مما يفكره العقل ويبعده من الخرافات ، نبت نتيجة للصدفة أو الارتجال. ويكفى أن هذه الظاهرات سايرت الانسان منذ نشأته ، وما تزال تسيطر على نواح كثيرة من سلوكه اليومى ، الأمر الدال على أنها استمدت جذورها فى قلوب السلف استجابة لحاجتهم الاضطرارية الى نوع من اليقين. وبالتالى الى تخيل المعرفة لإزالة قلقهم ازاء خضم الكون ومخاطره.

وقد اختلفت طبيعة هذه الاستجابة باختلاف صور العالم التى صورتها لهم معارفهم أو أوهامهم. ولعل الانسان لم يميز — أول وعيه — بين نفسه ومحيطه ، فخيل اليه أنه مجرد عضو من جسم كونى ، أو مجرد ترس فى آلة متعددة التروس يحرك بعضها بعضا. حتى انه يستطيع تحريكه وفق ارادته اذا ما عرف سر تلك الروابط. كما أنه خاضع لحركات الكون وما فيها من أفلاك أو كائنات.

تلك الفكرة ، وهى ان الانسان يملك سلطانا على القوى الخارجية ان عرف كيف يديرها ، هى أساس السحر.

ولقد كانت مرحلته التالية فى تطور تفكيره وفى محاولته تفسير مظاهر الكون ، أنه عزا الى كل كائن من الكائنات روحا خاصة ذات ارادة ذاتية. وتصور أنها دائمة التدخل فى حياته اليومية ... ثم لخوفه منها ، أله كلا منها كما أله كل ما كان يجهله ويخشاه. وهذا الاتجاه هو ما يسمى الروحانية.

وخطا بعد ذلك خطوة أخرى ، عندما اختار إلهاً من بين مجموعة الكائنات المؤلهة ، ليكون لأسرته حاميا ورمزاً وعَلَما وربا فى وقت واحد. وعده أرومة سلالته. فنشأت الديانات التوتمية التى اتخذت حيوانا إلها للقبيلة فحرمت أكله ، أو نهرا فحظرت الاستحمام فيه ، أو شجراً أو كهفا أو جبلا أو بركانا فنهت عن الاقتراب منه. اللهم إلا إذا عرف من يعتدى على حرمة هذا المحرم وسائل إبعاد اللعنة. وفى تلك الحال كان الحرام يتحول الى قداسة ، واللعنة الى بركة ، وتحل روح الإله فيه ، فيضحى آكل لحم هذا الحيوان ، أو المستحم فى مياه ذلك النهر ، مستوعبا إياه ، مماثلا له ، بل يصبح هو الإله.

ولذا فان معرفة تلك الوسائل كانت تعد ــ بطبيعة الحال ــ من أخطر الأسرار. ولا سبيل اليها لغير الكهنة والسحرة وأشراف القبيلة.

وفى مصر سلك الدين تلك الطريق. ويعتقد بعض علماء أصول الانسان أن الأصل فى تسمية كل مقاطعة من مقاطعات الدولة باسم حيوان ، تلك العادة التى استمر الأخذ بها طوال تاريخ مصر القديمة ، يرجع الى تأليه القبائل للحيوان الذى كانت تحتمى به. فكانت أسيوط تحتمى الذئب ، والمنيا تحتمى الأرنب ... الخ.

وعندما تكتلت القبائل المجاورة أو المتجانسة ، تحت ضغط الجيوش أو مقتضيات السياسة أو المنفعة ، ونشأت منها إمارات ودويلات ، رأى اصحاب السلطان أن الحكمة تقضى باحتفاظ كل قبيلة بآلهتها. وأن تعترف الدولة بالآلهة المحلية، بعد تنصيب إله القبيلة الحاكمة إلها فوق الآلهة ، ورفعه الى مستوى إله الكون. وكان لهذا الإجراء سبب سياسى هام ، هو أن الملك كان يعتبر حفيد الإله وممثله على الأرض ، فكان يتحتم أن يكون حفيد رب الأرباب الأخر وممثله فى هذه الدنيا.

وظهرت فيما بعد بين الكهنة النابهين نزعة فلسفية كونية ، عزت الى كل إله معنى كونيا. وجعلت من الإله الأول خالقا للكون. ومن الآلهة الأخرى أتباعاً ، أو رعايا له ، أو رموزاً لبعض صفاته ، أو ممثلين لبعض أشكاله ، وأدمجتهم فى نظرية عامة للكون. وركبت من الأساطير الفردية أساطير عامة تتحدث عن علاقات الآلهة بعضهم ببعض ، ومنازعاتهم على السلطان فى شكل وقائع تاريخية ، زعمت أنها جرت فى عصر سحيق حكم الآلهة فى غضونه البشر على الأرض. ولا شك فى أن تلك الأساطير بنيت على أسس تاريخية تقليدية ، وإن صعب أحيانا تخليصها مما حاكه حولها ــ على مر الأجيال ــ خيال الشعب الخصب ، وتأملات الكهنة الفلسفية.

الأسس النفسية للايمان بالسحر. أسهبنا بعض الاسهاب فى تتبع مراحل التفكير البشرى فى الكون ، لأن السحر بنى عليه فى كل عصر ، واصطبغ بصبغته ، وابتكر أساليبه تبعا لذلك ، وأملى قواعد الحياة الاجتماعية وفقا لمقتضياته.

ويمكن حصر مقومات السحر في ثلاث هي :

أولا : الاعتقاد بوجود قوة خفية عليا — لا تخضع [illegible] — تنظم العالم. وأن تلك القوة التي سميت أحيانا «مانا» يمكن للساحر أن يأسرها في جسده ، ثم يحلها بدوره في جسد غيره ، وأن يسخرها بصفة عامة لأغراضه عن طريق وسائل معينة سنتعرض لها فيما بعض.

ثانيا : المنطق الكاذب الذي يستقرىء من السببية الزائفة ومن القياس السطحي المثل من المثل ، والذي يرى روابط بين الشيء وشبيهه ، وبين الشيء وأسمه. كأن يعتقد أن أي عمل أتى بنتيجة في الماضي ، سوف يأتي حتما بمثلها في المستقبل. وأن اسم الانسان يحدد مصيره. وأن العقار اذا شابه عضواً فانه يشفي آلام هذا العضو. وأن خواص الأرقام والأشكال الهندسية تكسبها صفات ملائمة. ومن أمثلة ذلك التفكير الاعتقاد بأن صب الماء على الأرض يسقط المطر. وان إلحاق أي أذى بنموذج يسبب مثله في الأصل. وأن يوما من الاسبوع وقعت فيه كارثة يظل شؤما في المستقبل ... الخ.

وما تزال كثرتنا ، حتى من بين المثقفين ، تؤمن بخواص رقمي ١٣ أو ٧ ، أو يتشاءم من السفر يوم الجمعة ، أو لا يتحدث عن مرض الا مسبوقا بعبارة «عدوك» أو «بره وبعيد». بل يتحاشى التلفظ بأسماء الأمراض القاسية كالسرطان ، ويكنى عنها «بالمرض الملعون» أو بكناية أخرى. ولا يقدم على عمل الا تضرع قلبه بالدعوات. ولست أقول ان الابتهال الى الله تعالى ضرب من ضروب السحر ، ولكنني أعني أن الباع النفسي الذي يملي الى انسان القرن العشرين هذا التضرع ، هو الشعور القهري ذاته الذي كان يوعز بتلاوة التعاويذ في العصور النائية ، اذ أن الايمان بالأصنام أو

بالأرواح كان فى ذلك الوقت فى مثل قوة ايماننا اليوم بالله ورسله فضلا عن أن حاجة الانسان الى سند علوى هى من الظواهر الباقية.

ثالثا : عدم ادراك الانسان لفكرة الموت ردحا طويلا من الزمن كما هى الحال حتى وقتنا هذا لدى كثير من القبائل. وعدم تمييزه بين الموت والحياة. وتخيله ان الموت نوم طويل يعيش المتوفى فى أثنائه عيشة الأحياء ويقوم بأعماله المعتادة حتى بواجباته الزوجية (كما قام بها أوزيريس بعد موته فأنجب من زوجته إيزيس ابنهما حورس). وأنه يستيقظ أحيانا فيزور الأحياء طيفا فى أثناء نومهم ، وشبحا أو رؤيا فى أثناء اليقظة ، ويطالب بحقوقه وأملاكه. ومن هنا نشأ الايمان بتفسير الأحلام والأشباح ، وتقديم الأطعمة والملابس ، بل الخدم والزوجات للمتوفين ، والصلوات والسحر لاعادة الحياة الى ما كان يحيط بهم فى كهوفهم لتهيئة أسباب الراحة والترف لهم ، بغية استرضائهم والحيد بهم عن فكرة العودة. بل يذهب بعض الى القول بأن ركام القبور الذى تحول فيما بعد الى «الشاهد» كان الغرض من وضعه على القبور فى أول الأمر زيادة الثقل على الميت للحيلولة بينه وبين مغادرة القبر.

الباب الثالث

أركان العمل السحرى الثلاثة

يعتمد العمل السحرى على ثلاثة أركان هى : التعاويذ ، والطقوس ، وشخصية الساحر.

١ ــ **التعويذة** : هى الصيغة اللفظية التى يتلوها سادن السحر عند القيام بخدمته. وكيفما كان شأنها لدى بدء استعمالها فإنها ــ منذ عهد التاريخ بها ــ اتصفت دائما بالجمود وعدم القابلية للتحول. وقد عّدت أهم أركان السحر ومركز القوة الفعالة فيه ، وتلك القوة منحصرة فى صيغتها اللفظية ، تنطلق معها من فم المتكلم بغير مبالية بشخصيته ولا بالمعوذ له ، سالكة طريقا ذاتية لا عودة منها حتى بإرادة قائلها.

وهاتان الخاصتان وهما عدم ارتباط التعويذة بالأشخاص أو بنية القائل لها ، واستحالة تغيير خط سيرها اذا ما انطلقت جليتان: الأولى فى رواية

يعقوب ، الذى بارك ابنه الأصغر اسحق وهو يتوهم مباركة بكره ، ولم يسعه بعد ذلك العدول عنها. والثانية فى نبوءة أشعيا (٥٥: ١١) «... كلمتى التى تخرج من فمى لا ترجع الىّ فارغة ، بل تعمل ما سررت به وتبتهج فيما أرسلتها له».

والغالب أن اسناد قوة ذاتية للألفاظ نشأ عندما بدأ الانسان يتكلم ، ففطن إلى قوة الأصوات الجديدة وقيمة نغمة النطق ، وهابها فى غيره. مثال ذلك أن لعنة المجهول ما تزال مرهوبة ، وأننا مازلنا نغتبط بدعائه لنا. وقديما كان الملوك يهابون الشعراء ، وخاصة من برع منهم فى الهجاء وثلم العرض.

وقد عم الاعتقاد ــ لدى القدماء ــ بأن الكلمة لها حياة خاصة. وأصبحت الكلمة التى تصور المدلول فى الفكر البدائى هى المدلول ذاته. فترى السومريين يضفون عليها شخصية معنوية تشترك فيها الذات والصفة. وترى البابليين يذهبون الى أنه لا وجود لغير المسمّى ، ويعبرون عن حدث حصل قبل خلق السماء والأرض بأنه حدث والأرض والسماء «لم يسميا» بعد. وبالتالى فان معرفة أسم الشخص تعد امتلاكا له ، وتكسب سلطانا عليه كفى التعويذة «انى أعرف اسمك .. ألست أعرف اسمك؟».

ولذا فقد كان أسم فرعون يكتم ، ولا تذكر فى المتون الا ألقابه. بل إن إسم الله تعالى كان محرما على اليهود ذكره أو معرفته. وقد جاء فى «العهد القديم» ان الله تعالى أخفى أسمه عن ابراهيم واسحق ويعقوب ولم يذكره الا لموسى : «وأنا ظهرت لابراهيم واسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شىء ، وأما باسمى (يهوه) فلم أعرف عندهم» (سفر الخروج : ٦/٣). ومن مظاهر قوة الاسم أن ذكره كان ــ لدى قدماء المصريين ــ يضمن الحياة ، وترديده يعيدها. فقد ورد فى رسالة شستر بيتى السادسة «إن إسماً

يذكر على لسان انسان مفيد فى القبر ، إن الاسم هو الذى يحيى ،وإعادة أسماء الموتى على ألسن الأحياء يضمن لهم استمرار الحياة».

وقد تأثرت فلسفة أفلاطون بمثل هذه النظرة فأعارت للكلمة «logos» أهمية قصوى ، انعكست فى مستهل رسالة يوحنا : «فى البدء كانت الكلمة ، والكلمة كانت عند الله». يسهل علينا إذاً أن نتفهم كيف أسندت الى كلمة الآله والى اسمه قوة فذة تقهر كل مقاومة. إذ أن الإله ـــ تبعا لتلك الفكرة ـــ موجود فعلا فى كلمته وفى أسمه ، وأن كلمته وأسمه هما اياه ، وأن من يتكلم بأسم الإله يصبح هو الإله.

هذا هو السر الذى جعل لمنطوق التعاويذ والصلوات قيمة تعلو مدلولها. والذى أوجب الالتزام بشكلها ، وبطريقة ترتيلها ، الموروثين دون أى انحراف. إذ أن أقل تعديل فيهما كان يغير من طبيعتها ويفقدها فاعليتها. بل كان يؤدى ـــ تبعا لعقائد بعض القبائل ـــ بحياة من أخطأ إلقاءها. ولذا فان منطوق التعاويذ لم يتغير على مر القرون ، بل ان بعضها فى مصر كان ما يزال يلقى بلغة أجنبية (فى بردى لندن مثلا) لأنها كانت دخيلة ، أو لأنها كانت تستخدم ضد أرواح أجنبية. وللسبب نفسه فإنها ـــ عموما ـــ احتفظت بتراكيب لفظية عتيقة وبألفاظ مهجورة. وذلك القدم فى التركيب ، والغرابة فى التعبير ، مع السجع والتوقيع ، يكسوان التعاويذ ثوبا من الشاعرية والغموض ، يزيد فى روعتها وفى قوة إثارتها.

وكان مدلول التعويذة يشير دائما الى الغاية المطلوبة ، إما بالتشبيه أو بالاستعارة ، أو بتوافق الأصوات ، أو بسرد حوادث مماثلة من تواريخ الآلهة.

وكثيراً ما كانت تخضع تلاوتها لتقاليد مستمدة من خواص الأرقام

السحرية (٣ ، ٤ ، ٧) أو كانت تقرن بالتسبيح على العقد المربوطة على الحبال أو الأقمشة ، أو باستعمال النبيذ أو الزيوت أو الماء المقدس ، أو بطقوس أخرى.

وتتخذ التعاويذ أحد الأشكال الآتية :

(١) فقد تنظر الى المرض على أنه من فعل روح شريرة دخلت الجسم. وفى هذه الحال يركز السحر عليها إما بالأمر ، حين يقال لها مثلا : «أخرجى يا كسرة العظام ، يا متسللة الى الشرايين». أو حين يقال للمرض «أخرج مع البصاق ، أخرج مع القيء ...».

(٢) وكانت وسيلة أخرى الادعاء بعدم الاذعان الى الروح الشريرة . «أحضرت لتقبيل هذا الطفل؟ .. لا .. فلن أسمح لك بتقبيله ..».
«أأتيت لاصابته بضر؟ .. لا فلن أبيح لك أن تنزل به ضراً ...».
«أأقبلت لتأخذه معك؟ .. لا. فلن آذن لك باصطحابه ...».
«أنى أحضرت لك دواء من العسل ، وهذا ما يأتى بك شراً ، ومن البصل ، وهذا ما يأتى بك ضراً .. عسل حلو المذاق للأحياء ولكنه مر للأموات».

(٣) وكان السحر يعتمد دائما على قوة اللفظ ، وعلى العنف فى إلقائه ، وكذلك على خواص الأسماء ... من هنا كان الساحر يهتم بمعرفة اسم عدوه. وهو فى نظره إسم المرض. لأن معرفة هذا الأسم كانت تمنحه قوة وتعينه على التركيز ضده .. استمعوا إليه مثلا وهو يقول: «إنى أعرف إسمك .. ألا أعرف اسمك؟ ..».

بل أنه كان يلجأ الى التحايل عندما يشك فى هذه المعرفة ، بأن يصيح «أأنت خادم؟ .. فلتخرج فى القيء ... أأنت نبيل؟ فلتتسرب فى البول»...

(٤) ولقد كان التهديد من أساليب السحر الفرعونى ، ومن مظاهر هذا التهديد التهديد بتناول الفضلات الروثية ، ثم اطلاق هذه الصيحة : «أيتها الروح ، ذكر أنت أم أنثى ، اختفى يا ساكنة لحمى هذا ... أخرجى من لحمى هذا ... أخرجى من اعضائى هذه ... لقد أحضرت لك هذه الفضلات لتأكليها ... فاحترسى يا خفية واهربى ...».

(٥) ومن هذه الأساليب أيضا إدعاء الصحة للتأثير على الروح وإبعادها بالإيحاء. وكان هذا الأسلوب يتبع على الأخص فى الأوقات التى تنتشر فيها الأوبئة .. كأن يقال : «إنى سليم الجسم ... أنّى لى أن أصاب وأنا صحيح البدن؟ ... لقد شاهدت الكارثة الفادحة ولكنها لم تصبنى بأذى .. أنى أنا الذى خرجت من هذه الكارثة سليما معافى».

٢ ــ حركات السحر. هى حركات معينة يقوم بها الساحر أو الكاهن ، وهى عادة تصحب تلاوة التعاويذ وتعززها ، وان كانت فى بعض الأحيان تشكل الركن الأساسى فى السحر. وهى مبنية على القياس ، أى على العقيدة بأن قوة الساحر تحول الشبه الى حقيقة. وهى منوعة فإما أن تستخدم الحركة وسيلة للتعويذة لتنقلها الى المعوذ له ، وإما أن تقوم بلون من التمثيل يتناول الأمر المطلوب لضمان حصوله فعلا. كأن يقلد الساحر حركة الماء المتموجة بيده ، أو ينفخ ليرمز عن الهواء .. ، أو يمثل قصة من تاريخ الآلهة تتصل بموضوع العمل ، أو يصطنع معركة مع القوى الشريرة تنتهى بقهرها ... الخ (شكل ١).

وكانوا يستعينون ببعض المواد فى أثناء هذا النور. كأن يصب الماء لإسقاط المطر ، أو حرق الصور لالحاق الأذى بأصحابها. وقد تختار تلك المواد لخواصها الطبيعية ، أو لفوائد مزعومة استنتجت بالقياس الرمزى من

صفاتها أو أصولها أو شكلها. ومن تلك المواد عقاقير قوية تحدث انفعالات في نفس من يستعملها ، كالوسوسة والتخيلات البصرية ، وتهيجات ، وتغيرات فى الشخصية تشبه الهستريا ، يؤولها المشاهدون بأنها نتيجة حلول القوى أو الأرواح بالساحر. وكان تناول تلك المواد محرما فى كثير من الأحيان على الجمهور ، بل كانت معرفتها وطرق تحضيرها تحاط بالسرية التامة.

ولارتباط حركات السحر بفاعليتها ، وبسبب العقيدة التى نشأت بأن الامانة فى إجرائها هى العامل المقيد للقوى التى يبتغى تسخيرها ، احيطت تلك الاجراءات بمثل الدقة والجمهود اللذين كانا يحددان كيفية تلاوة التعاويذ.

٣ ــ شخصية الساحر : ومع أن قوة السحر كانت فى متناول كل من عرف أساليبه ، وأن فاعليته كانت مبنية على صورته الشكلية فحسب. فانه كانت تعار أهمية كبيرة لشخصية القائمين به ، وذلك نظراً لخطورة القوى التى كان يسيطر عليها ، والتى كانت تنصبه سلطانا على السلطان. ولذا فإن اختياره كان يحتاج الى تريث ، ويخضع لقواعد دقيقة. فكان يختار المرشح منذ طفولته على أساس أن يكون من سلالة السحرة ، أو أن تقترن أفلاك مناسبة ساعة ميلاده ، أو أن يحمل بعض الشارات على جسمه ، أو أن يصاب بأحد الأمراض المقدسة ، كالصرع أو الهستيريا ، أو أن تكون اعجوبة قد وقعت له فى حياته ، أو أن يكون موضوع حلم .. الخ. ، ولا يزال رهبان التبت يأخذون بمثل هذه الاعتبارات فى انتخاب أئمتهم.

على أن المرشح كان يربى تربية خاصة ، معزولا عن بقية القبيلة ، محاطا بحواجز من المحرمات التى تتناول طعامه وهندامه وعلاقاته الجنسية ، ومكبلا بقيود من الالتزامات التى كانت فى بعض الحضارات تصل الى حد تحريم

كشف وجهه والزامه ارتداء قناع. وقد كان عقاب مخالفة تلك الفروض صارما ، يودى بقوى الساحر الروحية ، وأحيانا بحياته.

وليس ثمة شك في أن تلك العزلة القاسية التي كان ينفرد بها الساحر ، وتلك الفروض الجبارة التي كان يدفعها ثمنا لما وهب به من مقدرة ، كانت تقوى ملكاته ، وتلهب حواسه ، وتزيد في عقيدته العميقة بأنه امتاز عن أخوته ، وتدعم إيمان هؤلاء بأن الآلهة اختصته بهبات فريدة.

ولحالة الساحر النفسية وزن يعدل حالته الجسمية. فقد كان يمتاز بحساسية مرهفة تقرب من الهستريا .. ولما لم تكن التعويذة في أول أمرها ـــ حسب اعتقاد البعض ـــ إلا صمام أمن لرغبة شديدة كامنة فى نفس المتلفظ بها تخيل له تحقيق رغبته ، وان الحركة السحرية لم يكن أساسها إلا إيهام النفس بحصول الحدث المرغوب عن طريق القيام بمثله ، فإن العمل السحرى اتصف بالعنف فى اللفظ والفعل. وكان يشعر من يأتى به أنه تحرر من قوى طاغية ، بينما ما يزال من حوله يرضخ لها. كما يتحرر «المريوح» فى الزار وقتيا من الوسواس المسيطر عليه والذى يخاله من عمل العفاريت.

ولذا فقد كان الساحر ـــ فى أثناء عملياته ـــ يشد أعصابه بالايحاء والعقاقير ، حتى تصل الى درجة من الهياج والتوتر. فتصدر عنه حركات زائغة وألفاظ عنيفة ، قد لا يكون لها معنى. ويمثل دوره تمثيلا جائراً وحشيا. كما يمثله اليوم «الكودية» ورواد الزار الملبوسون و «المريوحون» ومن اليهم.

الباب الرابع

الطب الكهنوتى
اختلافه عن السحر وشبهه به

اختلفت أساليب الطب اللاهوتى عن أساليب السحر فى الجوهر ، وإن شابهتها فى الشكل. ذلك أن السحر يدعى سلطانا مباشراً على قوى العالم ، بينما أن الطب اللاهوتى يلجأ الى القوى المجسمة فى آلهته متوسلا اليها أن تحقق مطالبه.

ولكن الطرق التى اتبعها الطب اللاهوتى كانت ، أحيانا ، شديدة الشبه بتلك التى مارسها الساحر قبله ، وهذا لأسباب عدة منها أن الطب اللاهوتى انحدر عن الطب السحرى إنحداراً طبيعياً أدى الى مسايرة المذاهب الجديدة للعقائد العتيقة ردحا طويلا من الزمن ، بل الى بقاء شوائب من السحر فى الأديان التى تبعته ، والى العقيدة فى فاعلية الأسلوبين ، بل الى احتفاظ الكهنة بألقابهم السحرية الى جانب ألقابهم الكهنية.

ومما أكد فاعلية السحر عند جمهرة الناس أن الكتب السماوية ذكرته وزخرت بقصص منه. فقد ذكرت أن موسى مارسه. وتحدثت عن شجرة الخلد التى كانت — حسب تفسيرها اللفظى فى التوراة — تكسب آكلى ثمارها الخلود كأن هذه الهبة مرتبطة بالثمار ، فلم يكن بد من أن يقصى الله آدم من الجنة خوفا من أن يأكلها فيصبح مثله (التوراة).

وقد استغل الكهنة تلك الملابسات ، وشجعوا الناس على الإيمان بتلك العقائد ، وكتموا أسرار طقوسه ، رغبة منهم فى احتكار طرائق التوسل الى الآلهة. واقتبسوا أساليبه فى خدمتهم الدينية. مما جعل التفرقة بين الدين والسحر من الصعوبة بمكان ، لأنهما متداخلان كل منهما فى الآخر. وقد حاول الكثيرون تحديد الفيصل بينهما ، فقال البعض إن الدين هو العقيدة ، والسحر هو الطقس ، الا أن دينا لا يرسم لمعتنقيه خط السير فى الحياة لا يسمى دينا ، ولا يزيد على كونه نظرية فلسفية خالصة. وقال البعض الآخر إن الإنسان — فى بدء إيمانه بالآلهة — كان يسلك احدى طريقين : الاولى محاولة الاستعانة بهم كما كان يستعين بهم الساحر. وهذا النوع من الخدمة اللاهوتية ، الذى لم يختلف عن السحر لا فى جوهره ولا فى شكله ، هو الذى ساد الفكر الدينى فى أوائل عصر الفراعنة ، وقد اكتسبت الطقوس الخاصة بهذا النوع من العبادة جمود الوسائل السحرية نفسها ، واصطحبتها تلك الحركات وذلك الارتباط بالأرقام .. الخ. أما الطريقة الثانية فجوهرها قبول سلطان الآلهة ، ثم مساومتهم بقبول الفروض الخلقية وواجبات العبادة ، ثمنا لما يطلب منهم من حماية ورعاية. وربما كان هذا الاختلاف فى الموقف هو الفيصل الحقيقى بين السحر والدين.

أما التعريف الثالث — الذى ذكرناه — وهو أن السحر يستمد تأثيره

من قوى مؤذية ، بينما الدين يتوسل الى الله ويستشفع بأوليائه ، فإنه ينقل كل الأديان الوثنية الى حظيرة السحر. وهذا مالا يمكن قبوله. لأن بعضها ارتفع الى صعيد روحانى عال ، ولم ير فى الأصنام إلا رموزاً لمعان شعر بوجودها ، وإن لم تقدّر له المعرفة الكاملة بها.

وقد عاصرت مصر الفرعونية مرحلة عبادة الآلهة ، وإن نظر المثقفون من قدماء المصرين الى الأصنام كصور لمعان أكثر سمواً ، أو حسبوها رموزاً لأركان الكون ، وإن جرت من جانبهم محاولات جزئية ترمى الى التوحيد ، فإن الشعب ظل يعبد عدداً لا حصر له من الآلهة الثانوية. ولذا فان أغلب السحر والطب السحرى فى مصر القديمة كان من النوع اللاهوتى أو الكهنى.

إلا أن المصريين لم يفردوا للطب إلها ، كما فعل الاغريق باسقلابيوس. وإن كانوا ذكروا بعض الآلهة فى سيرة الأمراض والأطباء. فقد ورد هذا فى سياق الكلام عنهم على انه جزء يسير من مجموعة أساطيرهم وأعمالهم ، لا يرتبط بصفاتهم العامة أو باختصاصاتهم الرئيسية الا عن طريق الصدفة أو القياس.

وقد وضعوا على رأس الآلهة «تحوت» ، وسموه «القّياس» ــ أى الذى يقيس ــ اذ أنهم عزوا اليه اختراع العلوم المضبوطة والرياضيات والأدب والفنون والعلوم السرية وأسس الدين. ونسبوا اليه تأليف الكتب المقدسة (ومنها الأجزاء الإثنان والاربعون من الموسوعة التى ذكرها كليمان الاسكندرى). واختراع الصيغ السحرية الشافية. وكان «تحوت» فى السحر ، لا يقل تضلعا عن إيزيس ذاتها. وقد صوروه على شكل طير أبيس (أبو قردان) أو على شكل انسان ذى رأس «إيبيس» (شكل ٢) ، مكلل بهلال القمر وقرص الشمس ، يمسك بفرع نخلة أو بالقلم واللوح. وقال

عنه الاغريق فيما بعد انه هو ذاته إلههم «هرميس» مثلث القوى.

ومن الاختراعات التى نسبوها اليه الحقنة الشرجية ، لزعمهم أن طير الايبيس يتجه الى الشواطىء ، ويملأ منقاره ماء. ثم يدخله فى الشرج فيحقن فيه الماء لغسله. والمرجح أن هذه الملاحظة غير صحيحة.

أما إيزيس ، مثال الانوثة والأمومة ، فإنها بعد أن قتل «سيت» زوجها «أوزيريس» وأخفى جسده ، كابدت متاعب مبرحة بحثا عنه بمساعدة أختها «نفثيس» حتى عثرت عليه فى «ببلوس» بلبنان ، وأنجبت منه طفلا. وبما أن الرمزية المصرية كانت تعد كل متوف أوزيريس ، فانهم يتوسلون بها لاعادة الصحة الى المرضى. وقد مثلت فى أسطورة «رع» دور الساحرة. وسميت أيضا بالساحرة الكبرى.

وبالمثل فان «سيت» قاتل أخيه ، كان رمزاً لكل روح شريرة ، ونظر اليه كناشر الأمراض والأوبئة.

ومن التطورات العجيبة فى التفكير الدينى أن «سخمت» ــ ذات رأس اللبؤة المكلل بالشمس والكوبرا (شكل ٣) الالهة المحبة للدم هادمة الجنس البشرى فى اسطورة إبادة البشر ، وزوجة «بتاح» ، وأم «نفرتوم» و «امحوتب» فيما بعد ــ تحولت فى نظرهم ، فأصبحت آلهة لالآم البشر. ومثلت على هذه الصورة على جدران من معبد «ساحورع» الجنزى فى أبى صير. وأصبحت تلك الصورة التى اشتهرت بصنع المعجزات موضع عبادة شعبية. وانتشرت عبادة «سخمت» وأسست لها المصليات فى المعابد فى مصر بأجمعها فى وقت مبكر ، وقام بشعائرها كهنوت منظم يتصل بالمرضى ، له دستوره الخاص ، ويعمل وسيطا بين جمهرة طلاب الشفاء وبين الآلهة ، مجرداً عن أى اختصاص طبى بالمعنى الفنى للكلمة. إلا أن الجمهور ــ بعد وقت ما ــ نسب اليه قوى «سخمت» الشافية

ومعجزاتها. فقام الكهنة عندئذ بعلاج المرضى بوحى مباشر من الآلهة. وكانوا ممن يعرفون التشخيص بالنبض.

وهناك — غير أولئك — أشخاص جمعوا بين صفتى الطبيب وكاهن سخمت ، منهم : «ونن — نفر» كبير سخمت والطبيب المفتش. و «إيرى نختى» (شكلى ٤ و٥)، رئيس الكهنة وطبيب السراى. و «هير يشفنخت» رئيس كهنة سخمت ، ورئيس السحرة ، وطبيب الملك.

وفى أثناء هذا التطور انتظم كهنوت سخمت على شكل هرمى. فنجد من بينهم كهنة سخمت ، ثم رؤساء هؤلاء الكهنة ، وبينهم اثنان اتهموا فى مؤمراة ضد رمسيس الثالث ، وفوقهم رئيس كهنة سخمت فى مصر قاطبة ، مثل «سم توتفنخت» الذى نال بمهاراته الطبية حظوة عدد من الملوك الذين حكموا مصر فى هذا الوقت ، وكان قد خلف خاله رئيس كهنة «سخمت» فى الجنوب والشمال فى هذا المنصب.

أما أطباء الرمد فكانوا فى رعاية تحوت ، الذى شفى عين حورس بعد أن مزقها سيت الشرير الى أربع وستين قطعة. وكذلك فى رعاية آمون الذى كان يلقب أحيانا «بالطبيب الذى يشفى العيون بغير دواء» ، أو «آمون مفتح العينين» ، أو «شافى الحول».

ولكن الإله الذى اختص بأمراض العيون كان «دواو». وكان مركز عبادته فى عين شمس الحالية «إيونو» وكانت صورته عليها الشارة التى تميزه (شكل ٦) وقد ظهرت تلك الشارة كذلك فى الكتابة الهيروغليفية لألقاب بعض كهنته ، مثلا : «نى عنخ دواو» (الحياة ملك لدواو). وكانت كثرة أطباء الرمد من الكهنة المتصلين به ، أمثال «ميدو نفير». الا أن حورس انتقل فى العصور المتأخرة من مركزه فى دمنهور الى إيونو ، محل محل

«دواو» وأصبح اله أمراض العيون بدلا منه. ثم انتقل حورس من عين شمس عبر النيل الى ليتو بوليس (وهى أوسيم الحالية). وسمى هناك «حورس مختنى ايرتى» أى حورس صاحب الوجه ذى العينين.

والظاهر أن العلاقة الوطيدة بين «دواو» و «حورس» فى عين شمس من جهة وجارهم «مختنى إيرتى» من جهة أخرى، والمتعلقة بعلاج العيون ، مبنية على علاقة وردت فى الأساطير. حيث روى أن حورس أعطى عينا من البلور الصخرى (كوارتز) الى هذا الآله عندما فقد بصره.

ورأوا فى «نيث» حامية للوالدات والأطباء. وكانوا يصورونها دائما فى صورهم للولادة معينة للنساء فى أثنائها. وكانت تعبد فى معبد سايس وتمثل باللبوءة ، وكان فى مقدورها أن تنفث هواء الطاعون من الصحراء ، وأن تبعد الشياطين فى أثناء النوم.

كان المرضى إذن يتوسلون الى «آمون» أو «سخمت» أو غيرهم من الآلهة دون أن يشعروا بالحاجة إلى إله للطب. ولكن الشعب فى عهد البطالمة ، رفع الى هذه المرتبة رجلا اشتهر منذ أقدم العصور ، وهو امحتب (شكل ٧) ، الذى شيد أول هرم ، وكان ــ قبل الميلاد بثلاثين قرنا ــ مستشاراً سياسيا ومهندسا معماريا. ولعله كان طبيبا لأحد ملوك الأسرة الثالثة «زوسير» وعبده الشعب بطلا منذ القرن السادس ق.م. ، ثم ألهه الاغريق تحت اسم «ايموثيس». وقالوا إنه أسقلابيوس.

نظرة المصريين المزدوجة الى المرض والطب : سايرت نظرة المصريين الى المرض الأزدواج بين النزعتين الدينية والتجريبية الغريزتين فى طبيعتهم. فقد كانوا يؤمنون بأن الجسم يولد صحيحا ، ولا يمرض ولا يموت الا نتيجة تأثير

خارج عنه. فاذا رأوا للمرض سببا ، مثل الجروح أو الديدان أو الاكثار من الطعام ، عرفوه وعالجوه بطرق تميزها الخبرة ودقة الملاحظة وتبتعد كل البعد عن الشعوذة والسحر. وأن أشركوها بالطرق الأخرى فى كثير من الأحوال ، لأنها لا تختلف فى جوهرها عن طرقنا العلمية الحديثة. أما اذا كان سبب المرض غير مرئى ، فانهم كانوا ينسبونه الى عوامل خفية. ولجهلهم بالميكروبات ، أو بالاستكشافات الكيماوية الحديثة ، لم يجدوا سبيلا الى تخمينها غير نسبتها الى أسباب خفية. اذ كانت فى فطرتهم الموروثة من قديم الزمن ، مثل انتقام الموتى ، أو عمل الأرواح الشريرة ، أو عقاب الآلهة. فكان يتحتم عليهم محاربتها بالوسائل التى تلائمها ، وهى التوسل بروح أقوى ، أو الالتجاء الى أعمال السحر المبنية على المبادىء التى وصفناها فيما سبق.

وسائل الطب الروحانى : نجمع هنا تحت عنوان الطب الروحانى كلا الطب السحرى والطب الكهنوتى ، لصعوبة التمييز بينهما. وكانت وسائلهم فى هذا مختلفة الأنواع ، منها :

(١) الأساليب السحرية المحضة ، كالطلاسم والأحجبة والتعاويذ.

(٢) ومنها استعمال المواد الغريبة ، كشعر التيس وروث فرس البحر والتمساح ... الخ ، وهذا لدلالات تلك المواد الرمزية.

(٣) نقل المرض أو الصحة من عضو المريض الى عضو حيوان أو بالعكس. ومن أمثلة نقل المرض ، أن توضع عين الخنزير فى أذن المكفوف لإعادة البصر اليه مع تلاوة هذه التعويذة : «ذهبت للبحث عن (هذا) الذى ينبغى وضعه محل (ذاك) لاستبدال ألم فادح» (إيبرز ٣٥٦). والمفروض

أن هذا الاجراء يستبدل عين الخنزير وهي سليمة ، بعين الكفيف ومن الأمثلة الأخرى ، دلك نصف الرأس المتألم برأس سمك مقلى فى الزيت ، لنقل الألم من رأس المريض الى رأس السمك .. الا أننا قلما نجد تلك الأساليب مستعملة بمفردها ، بل تصاحبها فى العادة أساليب روحانية أو لاهوتية.

(٤) وقد تكون تلك الأساليب مبنية على الالتجاء الى الآلهة ، لطلب تدخلها فى الامر. إما بأن تطالب صراحة بطرد الأرواح الشريرة .. «السلام عليك يا حورس يأيها الموجود فى بلد المئات يأحاد القرنين ، يا بالغ الهدف ، انى قصدتك لأمدح جمالك .. ألا فلتعنى على الشيطان الذى يتملك جسدى». أو بأن تنتحل ذات الإله ، كما ورد فى التعويذة الآتية : «اغربوا يا شياطين المرض ، لن يصيبنى الهواء .. إننى حورس الذى يمضى فى طريقه أمام سمخت .. أنا ابن بستيت الوحيد ، ولن أموت بسببك». أو أن يمنح كل عضو من أعضاء المريض ، صفة إله من الآلهة .. «ان قمة رأسك هى رع ، وقفاك هو أوزيريس ، أذناك حيتان ، ذراعك حورس ، سرتك نجم الصباح ، وإنما كل عضو فيك إله ، وكل إله يحمى إسمك ، وكل ما فيك ..» وترى أهمية معرفة الإسم فى الفقرة : «وكل إله يحمى إسمك». ولا غرابة فى منح كل عضو صفة إله ، فقد كانت هنالك نظرية تشريحية سادت الفكر الطبى حتى القرون الوسطى ، تقول بأن لكل عضو علاقة بفلك وعنصر ومعدن ... الخ. ومن العجيب أن أثر هذه الرمزية لا يزال باقيا حتى اليوم فى أسماء أجزاء الجسم .. ومثال ذلك حبل الزهرة ، وفقرة أطلس..

والى هذا فقد كانت هناك رقى ، تعتمد على روايات شفاء بعض الآلهة

التى وردت فى الأساطير ، فتحاول إعادة أحداثها ، أو تبنى على القياس الزائف. فمثلا لإيقاف نزف الحيض كان يقال «أتى انوبيس ليمنع النيل من دخول المعبد حتى يحمى من كان بداخله». وفى ذلك تشبيه الحيض بفيضان النيل. أو كالتعويذة التالية التى كانت تذكر على شكل حوار لعلاج الحروق.

«يقول الرسول : إبنك حورس يحترق على الهضبة

«إيزيس : هل هناك ماء؟.

«ويجاوب الرسول : لا يوجد هناك ماء

«ايزيس : عندى ماء فى فمى ونيل بين فخذى ، لقد حضرت لإطفاء النار».

وهذه التعويذة كانت تقرأ على مزيج من لبن امرأة انجبت طفلا ذكراً ، وصمغ ، وشعر تيس ، يوضع على الحرق.

اما طرائق استعمال التعاويذ فكانت متباينة. فمنها ما كان يستخدم بمصاحبة علاج. ومنها التى كانت تتلى فى أثناء تحضير الدواء ، فتضيف الى تأثيره ، أو تضفى على محتوياته صفة الدواء[1]. ومنها التى كانت تتلى على الشخص المعوذ ، أو على «حجاب» مكون من قماش أو خيط معقود أو

---

(١) كانت الصيغة الآتية تتلى على صفراء سلحفاة فى أثناء صحنها بالعسل لصنع مرهم يوضع على الجفن لعلاج السحابة (إيبرس ٣٢٠) : «هناك ضوضاء فى سماء الجنوب منذ غروب الليل ، وزوابع فى سماء الشمال .. وقع كوم من الرؤوس المقطوعة فى الماء .. من يستردها؟ لقد استرددتها وقد أعدتها الى أمكنتها .. لقد ربطت فقرات رقابكم .. لتبعدوا أذى الإله أو الميت أو الميتة».

وجاء ذكر صفراء السمك فى العهد القديم فى قصة طوبيا (١١ ، ١٣ الى ١٥) التى تروى أن ملكا أعطى طوبيا صفراء سمكة لازالة السحاب الذى أظلم نظر أبيه.

ريش رخم أو شعر حيوان ... الخ. وهذا الحجاب هو الذى كان يحمل قوة التعويذة فينقلها من الساحر الى المريض ، دون استخدام دواء ما.

ومن الغريب أن الطبيب أو الساحر ، عندما كان يرتل التعويذة ، كان يتكلم بلسان الإله تارة ، والساحر الآمر طوراً ، والمريض أحيانا.

هل كانت للسحر قيمة اجتماعية : نحن لا نستغرب استمرار الإيمان بفاعلية السحر وبقاء بعض مراسمه — مع ازدهار حضارتنا المبنية على نزعة تجريبية تعقلية واقعية. ولهذا البقاء أسباب مهمة تستمد غذاءها من جذور متغلغلة فى صميم قلوبنا فى نواح منها منعزلة تماما عن تلك التى يتحكم فيها العقل والمنطق. وهذا العزل هو سبب التناقض الظاهر فى وجود دربين مختلفين من التفكير يسيران جنبا الى جنب فى العصر نفسه ، بل فى الذهن نفسه.

ذلك ان الانسان واجه على مر التاريخ نوعين مختلفين من الظروف. أحدهما قابل للتكهن والاستقراء ، كالأجواء ومواسم الزراعة والفيضان وتأثير أنواع الطعام والشراب وكل العوامل الخارجية كجروح السيوف والرماح والفؤوس. وثانيهما لم ير له سببا بادىء ذى بدء — كالرعد والقحط والأوبئة والسكتة ونوبات الصرع والزلازل — فلم يسعه اخضاعها لقانون ، ولم يرقه اسنادها الى الصدف ، فافترض لها أسبابا خفية. وقد واجه النوع الأول بالوسائل التى أملتها عليه خبرته واستنتجها عقله المنطقى. ثم اخضع تلك الوسائل الى التصحيح بالملاحظة والتجربة. وأضاف اليها الملاحظات على مر الزمن. وزادها دقة فى الوصف وتعمقا فى التحليل.

أما الثانية فقد ظلت عالما مغلقا مبنيا على الخبرة التصوفية لا على البرهان التجريبى أو المنطقى ، وعالجها بما كانت توحيه اليه عقائده

وأحاسيسه. فتقدمت أولى الوسيلتين وكونت العلم. بينما تجمدت الثانية وأصبحت ما نسميه بالسحر.

وقد ساعدت على رسوخ العقيدة بالسحر أسباب أخرى لا تقل أهمية عن الاولى ، وهى تتصل بشخصية الساحر وبطبيعة الانسان. وبالقواعد التى كان يجنيها المجتمع البدائى منه.

أما الساحر فكان يمتاز دائما بقسط كبير من الحذق الاجتماعى ، والدهاء السياسى ، والمهارة فى انتهاز الفرص للقيام بأعماله ، كأن يسند فترة القحط الى غضب الآلهة ، ويفرض ما يفرضه على الشعب لإرضائها. ثم لا يقوم بالطقوس التى يزعم إسقاط المطر بها إلا عندما يجد أن حالة الجو تنبىء به.

وفيما يخص طبيعة الانسان فإنها تتوق دائما الى العجائب ، وتحب التوغل فيما وراء الطبيعة. وتؤثر عند النظر فى قضية ما أن تأخذ بعوامل روحانية ، مغفلة الأسباب المادية ، وتتمسك بحالات فردية أتى السحر فيها بنتيجة مردها الى الصدفة ، وتنسى آلاف الحالات التى منى فيها بالاخفاق. هذا بالاضافة الى حاجة الانسان الدائمة الى عون من فوق. والايمان بتوفر هذا العون هو أساس الأديان. كما أن الشك فيه أدى فى فلسفة اليأس والتشاؤم التى تجمعت أخيرا فى المدرسة الوجودية.

وهذا الايمان بالسحر أكسبه قوة اجتماعية قصوى ، اذ أن المؤمن به يعتقد أنه يمكنه ، إما بنفسه أو بالالتجاء الى وسيط — هو الساحر أو «الشيخة» أو «الكودية» — فرض إرادته على تلك القوى المخيفة التى تحوم حوله. الأمر الذى من شأنه ازالة القلق الكونى ، وتحقيق اتزان فى الحياة العاطفية. وهذا هو أساس النزعة الطقسية Ritualism المغروسة — كثيراً أو

قليلا ــ فى كل منا. والتى ترغمنا ــ رغم أنفنا ــ على اجراء بعض الحركات التلقائية أو «الأوتوماتيكية» كالتسبيح ، أو أشعال السيجارة ، أو التلفظ ببعض التوسلات عند الإقدام على عمل ، تخفيفا لتوتر أعصابنا.

وكما يقاس السحر بدوافعه ، يقاس أيضا بثماره. فان السحر فى العالم القديم حل محل قوانيننا ولوائحنا الحالية ، بفرض سنن سنها حكماء القبيلة. فوضع للطعام والشراب ، والنشاط الزراعى ، ومواسم القنص ، وتربية الأولاد .. الخ. قوانين مع فارق هام هو أنه أعتمد على الرعب من الأرواح ، بينما أن القوانين العلمانية ترتكن اليوم على الوعى الاجتماعى.

ولا شك فى أن بعض الفروض والتحريمات كانت مبنية فى كثير من الأحوال على الخبرة والتجربة ، ولكنها فى حالات أخرى كان ضررها أكبر من نفعها. وربما رجع هذا الى فارق آخر بين السحر ــ وهو جامد لا يقبل التغيير ــ وبين العلم ، الذى تتغير أسسه كلما قام البرهان على خطئها.

بقى أن نقول إن هذا الحكم على السحر يبدو أقسى مما يجب ، لوجود ظاهرات لا شك فيها ، يستعصى درجها فيما هو معروف للعلم. وتلك الظاهرات فسرت بأنها نتيجة إما للتلفيق والدجل ، وإما لتخيلات وهمية مردها الى الإيحاء ، وإما لأفعال قوى طبيعية ما نزال نجهل كنهها ومداها.

وتلك القوى ــ التى تأتى بنتائج تبدو كأنها من ثمار عوامل متسمة بالذكاء وحرية الارادة ــ هى موضوع علم المتابسيكولوجيا أوعلم «ما وراء النفس» الذى يدرس قضاياها بالطرق الاحصائية والعلمية نفسها التى تتوخاها العلوم التجريبية المعهودة.

وقد أوصت الأديان السماوية بالابتعاد عن تلك الأعمال ، وأسندتها الى أشخاص وأرواح شريرة ، أو الى الشياطين التى لا يمكن للانسان العادى

تمييزها عن الأرواح الخيرة. وقالت بأن تلك الأرواح قد تسخر لإسقام السليم، أو لإلحاق الأذى بشخصه. كما قالت إنه يمكن — اذا ما عرفت تلك الشياطين — طرها بتسليط من هو أقوى منها عليها. واعتبرت تلك الأفعال كفراً يعاقب عليه وأنه «كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا» (من سورة الجن). وقالت إن أنجع الوسائل لمحاربتها هي الإيمان بالله والاستعاذة به. وربما كان هذا تعريفا أساسيا للسحر يميزه عن الدين، وهو أن السحر يوسط الأرواح المؤذية، بينما الدين يتضرع الى الله تعالى ويتشفع بأوليائه. فهو — دون مرية — أقوى منه، ويفوقه مقدرة. كما قضى ما صنعه موسى على سحر فرعون.

الباب الخامس

أقدم كتب الطب في العالم
لفائف البردى الطبية

يمكن رد أصول معرفتنا لطب الفراعنة الى ديانتهم ، والى لغتهم ، والى لفائف البردى ، والى فحص المومیات والنقوش الموجودة فى المعابد ، والى ما روى عنهم [illegible] —

البرديات الطبية : عندما أفاق المصريون من السبات العميق الذى كان دفعهم اليه الهكسوس الجهلة ، نشأت طبقة وسطى مثقفة فى غضون الامبراطورية المتوسطة ، أتيحت لها الفرص التى كانت حتى هذا الحين وقفا على الكهنة والأمراء. فبدأت تتلمس فى ماضى مصر المجيد أساسا لبناء مستقبل جدير بها. وقد انقضى على بناء الهرم الأكبر أكثر مما انقضى بين فتح الاسكندر لمصر ويومنا هذا ، ورحلت أسماء مينا ومنيس ماحوتب

وخوفه الى عالم الأساطير (بينما أن حرب طروادة ووقائع الألياذة والاوديسة وقعت بعد ذلك العهد بحوالى ثلاثة قرون). فعكف الفراعنة والأثرياء والمثقفون على جمع القراطيس القديمة ، وكلفوا النساخين فى «دور الحياة» (التى سيأتى شرحها فيما بعد) بنقلها. وأغلب لفائف البردى الطبية التى كشف عنها الى اليوم ترجع إما إلى هذه النهضة الثانية ـــ التى ازدهرت فى غضونها فنونها وحضارتها من الهند الى أواسط افريقية ـــ وإما الى العصر الذى سبقها بقليل.

اصول البرديات الطبية وتاريخها : واستجلاء هذا الأمر من الصعوبة بمكان ، لأن اللفائف التى فى أيدينا ليست الا نسخا متخلفة من أصول قديمة استنسخ الكتاب منها ما وقع فى أيديهم ، كاملا أو منقوصا. حتى الأجزاء الممزقة منها مهما كان اختلاف المواضيع التى تناولتها ، نقلت تباعا على لفافة البردى نفسها حسب ورود الأجزاء اليهم.

ولا عجب ، فإن تلك اللفائف الأثرية كانت نادرة ، وقد أصابها من الدهر ما أ[illegible] البردى الخام كان باهظ الثمن ، بل ربما كان يحتكره البلاط. وكان النساخون المهرة قلة ، مرتفعة أجورهم ، وهذا جعل المخطوطات عزيزة. وما يدرينا؟ فربما كانت البردية الواحدة من تلك البرديات تحل محل مكتبة كاملة ، وتضم فى لفافة واحدة المؤلفات المختلفة التى أراد صاحبها اقتناءها.

ومن دلائل افتقار تلك اللفائف الى النظام فى تصنيفها ، تباين محتويات كل منها فى الجوهر والروح كما سنرى فيما بعد ، بل فى الخط نفسه. ولذا فإنه ينبغى لنا ألّا نقرأ تلك اللفائف على أن كلا منها مؤلف قائم بذاته. بل يجب أولا اجراء عملية تحليل لأجزائها المتباينة ، ثم قياس تلك الأجزاء بأمثالها

من اللفائف الأخرى من حيث الخط واللغة والروح والموضوع ، وضم القطع المتناظرة والمتكاملة ، لعلنا بهذه الطريقة نستقرىء ما كانت عليه النصوص الأصلية التي اقتبست منها تلك المؤلفات.

وقد بذل علماء الآثار جهوداً جبارة من أجل إزاحة الستار عن أسرارها. فإنه من المعروف الآن أن جميع اللفائف التي وصلت الينا منسوخة من أصول أقدم منها ، وأن المعلومات التي تحتويها مستقاة من واحدة أو أكثر من تلك الموسوعات الطبية التي ترجع الى عدة قرون قبلها ، وإن كنا لا نعرف شيئا عن مكان نشأتها أو عن مؤلفيها ، فذاك أمر لا يزال فى طى الغموض. إلا أن الأبحاث اللغوية الدقيقة ، ودراسة الأساليب التي كتبت بها هذه اللفائف ، ومقارنة هذه الأساليب بعضها ببعض ، أدى كل هذا الى اليقين بأنها ترجع الى عهد سحيق. مع أنها جميعا مؤرخة فى الفترة بين ١٥٥٠ و ١٣٠٠ ق.م.

وهذه المخطوطات نفسها تتضمن تعبيرات أو جملا تنهض هى الأخرى أدلة على أن المعلومات التى جاءت بها كانت معروفة قبل العصر الذى خلف هذه اللفائف البردية.

ولنذكر من بين هذه الأدلة ما يلى على سبيل المثال :

أولا : أنه ورد فى بردية إيبرز فى ثلاثة مواقع كلمة : «جم وس» (ومعناها : وجد ممزقا). أو : «مدنرت» (أى لا توجد أية كتابة). وفى بردية سميث بالخط الأحمر — حيث كان ينتظر ذكر العلاج — عبارة «لا يوجد شيء». ويمكن تفسير هذا إما بأنه لا علاج لهذا المرض ، أو ان العلاج لم يرد ذكره فى الاصل.

ثانيا: ذكرت بعض اللفائف أسماء المراجع الأصلية. وأشارت الى ورود

بعض المعلومات من مؤلفات قديمة ... مثل ما جاء فى كتاب الشرايين (إيبرز ١٠٣ ـــ ١ ـــ ١٨) عن وصفة طبية من أنها قد اكتشفت تحت قدمى تمثال «أثوتيس» ، ثم قدمت الى الملك «سندا» من الأسرة الثانية.

ثالثا : ذكر بخصوص بعض إشارات طبية أنها اتبعت مع هذا الملك أو ذاك من ملوك الأسر الأولى ، وكانت ناجعة المفعول.

رابعا : تلك القصة المروية على حجر قبر ، يرجع الى القرن الثامن والعشرين ق م ، وفحواها أن وزيرا يدعى وش ـــ بتاح فقد وعيه حينما كان يقوم بجولة تفتيشية ، فأرسل فرعون نفرير كيرى (من الأسرة الخامسة) فى طلب الأطباء. فلما رجع هؤلاء الى المخطوطات وأطلعوا عليها ، أعلنوا أن علة الوزير مستعصية لن يبرأ منها.

خامسا : ان بعض الكلمات كانت قد أصبحت عتيقة فى وقت النسخ كأنها من عهد جاهلية الفراعنة. وقد نسى معناها عند نسخ اللفائف ، مما استدعى كتابة هوامش تفسيرية لها.

أما أصول ما ورد فى اللفائف من الوصفات الطبية ، فأكثرها ترجعها اللفائف الى الآلهة. مثال ذلك إما تقول بردية لندن (٢٥ ـــ ٤٦) عن تعويذة تشفى مرض «تميت نسيت». فانه يروى أنها هبطت من السماء فى ساحة معبد «تمبيس» وقد شمل الأرض ظلام الليل. ولكن القمر أضاء لها الطريق ليلة هبوطها ، فضمت الى كنز خوفو. أى ألف سنة قبل تاريخ اللفافة.

على أن هناك اشارات نسبت الى أشخاص آدميين ، وان كانت قليلة العدد. نذكر منها ما عزى الى طبيب اسمه «نترحتب». ودهانا للوجه اكتشفه أحد كهنة هليوبوليس ، ذكر بالاسم فى لفافة أيبرز (٤١٩).

وبعض هذه الاشارات منسوبة الى غير المصريين ، كعلاج العيون (أيبرز ٤٢٢) الذى قدمه آسيوى أتى من بيلوس. وكالتعويذتين اللتين حفظتا فى لغتهما الأجنبية الأصلية (لندن ٢٧ ، ٣٢). وكالتعويذة (لندن ٢٧٠) التى تشفى من مرض أطلق عليه اسم أجنبى لأنه وصل الى المؤلف عن طريق أحد الأجانب.

وقد أكدت روايات المؤرخين القدامى وجود موسوعات قديمة فى الطب تعد أقدم كتابات طبية فى العالم. روى «مانيتو» الكاهن بمعبد هليوبولس (٢٨٠ ق م) أن أثو تيس ابن مينا موحد الشطرين ، ألف كتبا طبية ، ومنها مؤلف فى التشريح ، وأن مكتبة منف كانت تزخر بالكتب الطبية فى عهد إمحوتب (حوالى ٣٠ قرن ق م). وتحدث كليمان الاسكندرى (القرن الثانى الميلادى) عن موسوعة سرية فى ٤٢ جزءاً فى العلوم قاطبة ، كانت تحفظ فى المعابد ، منها ٦ فى الطب.

إلا أن اللفائف على اطلاقها لا تمثل غير جزء من معلومات أطباء الفراعنة. فهناك ما يدل على أن علماء مصر اتبعوا طريق التلقين الشفوى من الأب الى الابن ، أو من الاستاذ الى تلميذه ، بعد درجة معينة من التعليم ، حرصا على سرّيته. مما يحمل على الظن بأن معلوماتنا عن طبهم سوف تظل ناقصة لعدم تدوينه بأكمله.

كما أنه يستدل من عدة روايات ونصوص ، على أن تعليم الطب كان يعد سراً لا يفشى الا لمن أقسموا اليمين. فقد روى «سترابو» أن الكهنة أخفوا عن افلاطون و اودكسوس الجزء الأكبر من علمهم ، حتى بعد أن أمضيا ثلاث عشرة سنة فى مصر. ودون ابن أبى أصيبعة رواية مماثلة بصدد زيارة فيثاغورس لمصر.

ومن مظاهر السرية التى أحاطت بتعليم الطب حتى عهد الاغريق ، فقرة جاءت فى قسم أبقراط الذى كان يقسمه كل من رغب فى مزاولة الطب. وقد حار فيها المفسرون وهى : «وأشرك أولادى ، وأولاد المعلم لى ، والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبى فى الوصايا والعلوم وسائر ما فى الصناعة ، **وأما غير هؤلاء فلا أفعل بهم ذلك**».

وتبدو هذه السرية كأنها من رواسب قرون سبقت أبقراط ، وربما كانت من آثار الطقوس الفيثاغورية والأورفية وغيرها ، المستمدة من المذاهب السرية السائدة. ونحن نعلم ما يدين به فيثاغورس وغيره من فلاسفة الأغريق للمصريين.

أهـــم اللفائف الطبيـــة : وأهم لفائف البردى التى كشف عنها اليوم هى ثمان. أطلق عليها أسماء مكتشفيها ، أو ناشريها ، أو أصحابها ، أو المدن التى تحفظ فيها ، أو القرى التى وجدت فيها. وتلك اللفائف هى لفافة إدوين سميث ، وإيبرز ، وكاهون ، وهرست ، وبرلين ، وشستربيتى ، ولندن وكارلزبورج . وهناك مخطوطات ثانوية أخرى. ولا شك فى أن أرض مصر الغنية تكتنز فى باطنها لفائف أخرى تضن علينا بها الى اليوم.

وكان يقوم بالنسخ كتاب محترفون ليسوا من الأطباء. وان رجح «جرابو» أن كاتب لفافة «كاهون» طبيب. ومما يحمل على الظن أن بعضهم كان فعلا من الأطباء أن بعض الأطباء كان يحمل بين ألقابه لقب «كاتب» ، ورسم على النقوش حاملا لرمز الكتاب ، وهو الريشة ولوحة حاملة لانائين من أوانى المداد.

ولكن الكاتب لم يكن مجرد خطاط فى هذا العصر الذى كانت فيه

الكتابة علما سريا ، بل كان يجمع صفات الكاتب والأديب والفيلسوف.

ويبدو أن عملية النسخ كانت تمارس فى مؤسسات متخصصة تشبه الاكاديميات الحالية ، و «موسيون» الاسكندرية فى عهد البطالمة ، وكانت تسمى «دور الحياة». ويلتقى فيها العلماء والفلاسفة والأطباء وطلبة العلم ليتبادلوا الآراء.

وتقع كل مجموعة من أوراق البردى فى لفائف أفقية يتصفحها القارىء من اليمين الى اليسار ، حتى اذا ما فرغ من قراءتها أعاد لفها لتكون الصفحة الأولى أول ما يمكن الاطلاع عليه من جديد ... وهكذا وجدت جميع اللفائف على هذه الصورة ، أى معدة للقراءة. ما عدا لفافة هرست التى عثر عليها مطوية بشكل عكسى ، أى أنه أهمل اعادة لفها بعد الانتهاء من قراءتها. وكانت عملية النسخ تتم على يد الكتاب المحترفين ، لا بواسطة الأطباء. وكان الخط المستعمل هو الهيراطيقى ، وهو نسخ الهيروغليفى. وكان يكتب بالمداد الأسود ، ما عدا الأرقام والعناوين والهوامش ، فانها كانت تدون بالمداد الأحمر. وكثيراً ما كان الناسخ يضع الكلمات الحمز أولا ، ثم يملأ ما بينها من فراغ بالمداد الأسود ، مما سبب خلطا بين النوعين فى بعض الحالات.

ولم تكن ثمة فهارس لهذه الكتابات. ويقول هرمان جرابو فى هذا الصدد : «ان المصريين القدماء كالمصريين المعاصرين ، كانوا يعتمدون على ذاكرتهم القوية فى الدرس».

ولم تكن أوراق البردى مجرد مؤلفات تكتب لتظل سجينة المكتبات ، وانما كانت متداولة بين الأيدى كل يوم ، كما يتضح ذلك من التفسيرات والتعليقات الكثيرة المدونة فى هوامشها ، والتى تمنح تلك المخطوطات حياة

عجيبة. فمثلا نقرأ هذه العبارة : «جربت هذا ووجدته مفيداً». أو هذا التعليق «هذا طيب» ... الخ. وجدير بالذكر أن تلك الهوامش بخط النساخ أنفسهم ، مما يدل على أن المخطوط منقول بحذافيره وهوامشه.

أما لغة اللفائف ففيها كثير من البديع فى الوصف والتشبيه كما سنرى فيما بعد

لفافـة كاهـون : وأقدم لفافة وصلت الينا هى لفافة كاهون التى اكتشفت فى مدينة اللاهون بالفيوم. وترجع الى عام ١٩٥٠ ق.م. وقد دوّن على ظهرها حساب من عهد أمنمحات الثالث ، أحد فراعنة المملكة الوسطى (١٨٤٠/ ١٧٩٢ ق م) ، وهى ليست فقط أقدم اللفافات فى تاريخ نسخها ، بل أن أصلها يبدو أيضا أقدم من أصول اللفافات الأخرى. وتتكون تلك اللفافة من قسم طبى وقسم بيطرى وقسم خاص بحل بعض المسائل الحسابية. وكتبت كاللفافات الأخرى بالهيراطيقية ، فيما عدا الجزء البيطرى الذى كتب لأمر ما بالهيروغليفية ، وهو خط كان وقفا على الكتابات الدينية.

أما القسم الطبى ، وهو الذى يعنينا ، فيقع فى ثلاث صفحات ، الأولى متآكلة ممزقة مشققة ، رممت فى عهد قديم بلصق قطع من لفافات بردى أخرى على ظهرها. والثانية فى وسطها ثقب كبير ، وليس بها من الأسطر الكاملة الا سبعة. والثالثة أعيد تكوينها من ست وأربعين قطعة متناثرة.

وتضم الصفحتان الأوليان سبعة عشر تشخيصا ووصفة فى أمراض النساء. ولم يوضع عنوان لكل تشخيص. وفى شأن العلاج لم يذكر أى

اجراء جراحى. وانما اكتفى بوصف العقاقير ، مثل جعه واللبن والزيت والبلح وبعض الأعشاب. والعلاج بالغسيل والتبخير المهبلى.

وتحوى هذه الصفحة الثالثة سبع عشرة علامة لتمييز العقيمات من بين النساء ، وللتكهن بجنس الجنين. مثال ذلك أنها تشير لمعرفة خصب السيدة بأن تجلس السيدة فوق بقايا جعة و ... ، فاذا تقيأت كانت خصبة ، ودل عدد مرات القيء على عدد الأولاد الذين سوف تلدهم. أما اذا لم تتقيأ فإن هذا يدل على أنها عقيم. والظاهر أن كل الإشارات الخاصة بمعرفة العقم مبنية على نظرية ذاهبة الى أن هناك إتصالاً بين المهبل وبقية الجسم فى حالة الخصب. وهذه النظرية هى التى أوحت ولا شك بالوصفة الأخرى ، وهى وضع لبوس من الثوم فى المهبل ، ثم ملاحظة رائحته فى الفم إذا كانت المرأة خصبة.

وقد استعمل الاغريق الطريقة نفسها ، ووصفها أبقراط فى كتاب الفصول. وليس ثمة شك فى أنه اقتبسها منهم. ثم توارثها أطباء العرب ، ومن بعدهم الإفرنج ، حتى استعملت فى القرون الوسطى فى أوربا. وهذه الطريقة قد تبدو لنا خيالية ، أو مبنية على تأملات مجردة. الا أن الأستاذ الدكتور أحمد عمار أبدى أنه يجب الا نستبعدها دون أن نجربها. فقد لاحظ هذا العالم ذو الخبرة الواسعة ، ان الخصبات من النساء يشعرن فى فمهن بطعم الثوم بعد حقن الليبيودول فى الرحم ، نتيجة لانتقال اليود الموجود فى الليبيودول من الرحم الى التجويف البريتونى ، ومنه الى الرئة اذا كان البوقان سالكين.

وتعتمد بعض الإشارات الخاصة بالولادة على حالة الثديين وقوامهما ، أو على البشرة والعينين. وما نزال نرى فى مصر الحموات يتحسسن ثديي زوجة

الابن ، ويترقبن ظهور البقع السمراء على الوجه ، عند إتماسهن لعلامات أول حدوث الحمل.

غير أن الكثير منها مبنى على استخدام التعاويذ ، وعلى طرق تمت الى الدجل والشعوذة ، اكثر مما تتصل بالطب الحقيقى ، وهى فى هذا شبيهة بما جاء فى هذا الموضوع نفسه على ظهر بردية برلين.

بردية إيبرز : هى أضخم لفافة كشف عنها الى اليوم. وصلت الينا كاملة فى ١٠٨ صفحات. وتحمل تاريخ السنة التاسعة من حكم أمنوفيس الأول (١٥٥٠ ق م). ولكنها كسائر اللفافات ليست مؤلفا ذا وحدة موضوعية ، بل إنها أشبه بلوحة الفسيفساء المستمدة قطاعاتها الملونة من أجزاء مؤلفات أخرى متناثرة. وهى تكون موسوعة من مؤلفات وبحوث فى مواضيع مختلفة ، وصلت الى الكاتب ، فنسخها حسب وصولها ، ويمكن حصرها لاعطاء فكرة عن علم هذا الوقت ومدى التخصص فيه على الوجه الآتى :

١ ـــ توسلات للآلهة.
٢ ـــ الأمراض الباطنية وعلاجها.
٣ ـــ وصفات لأمراض العيـــون.
٤ ـــ وصفات لأمراض الجلـــد.
٥ ـــ وصفات لأمراض الأطـــراف.
٦ ـــ وصفات مختلفـــة.
٧ ـــ أمراض النساء وعلاجها.
٨ ـــ مؤلفان عن القلب والشرايين ، وهما المؤلفان الوحيدان اللذان وصلا الينا فى علمى التشريح ووظائف الأعضاء.

٩ ـــ الأمراض الجراحية وعلاجها ، وهذا الجزء لم يتناول الجروح بل اقتصر على الأورام والخراريج ، وقد سمى بـ «كتاب الأورام».

ومما يدل على نظرة المصريين الى المرض أن تستهل هذه البردية على الشكل الآتى :

«هنا يبدأ كتاب تحضير الأدوية لكل أجزاء الجسم وأمراضه ، وقد ولدتُ فى هليوبوليس مع كهنة حت – عات سادة الحماية وملوك الخلود والنجدة. ولدت فى سايس مع إلهات الأمومة ... ومنحنى سيد الكون كلمات أستعين بها على طرد الأمراض من الآلهة ، وابعاد الآلام الوبيلة. أنى أضم فصلا يتناول رأسى هذا ورقبتى هذه ولحمى هذا .... ، من أجل عقاب الكائنات العليا التى سمحت للمرض بالتسلل الى لحمى هذا ، وبوضع تعاويذ على أعضائى هذه ... يا إيزيس اشفينى كما شفيت هورروس من الآلام التى أصابه بها أخوه سيت لأنه قتل والده أوزيريس .. خلصينى من جميع المؤثرات الشريرة ومن الأمراض الشيطانية والأمراض الفتاكة والملوثات التى رميت بها كما خلصت ابنك حورس». وهكذا يبدو لنا الطب الفرعونى مصبوبا فى قالب من السحر.

والغرض من هذه الديباجة تقديم الحجة على أصالة الكتاب الالهية ، وعلى أن قوة السحر الذى بها مستمدة من الآله الخير تحوت الذى كلفه الإله رع بحماية البشر المتألم ، ثم استعمالها تعويذة شافية.

أما القسم الجراحى ، والقسم الخاص بأمراض فم المعدة ، فهما مكتوبان بطريقة بردية أدوين سميث.

والجزء الثانى يحوى أول تفسير للحياة مبنى على تأملات فلسفية ، ولا يعتمد على الأساطير وقد تناول هذا الجزء الكثير من الأمراض الباطنية.

والجزء الثالث الى السادس هو مجموعة وصفات. ويمكن اعتباره فارماكوبيا هذا العصر لو لم يمتلىء بالرقى.

وقد حوت هذه الموسوعة ٨٧٧ وصفا ، بعضها فى كيفية التشخيص ، وبعضها مقرون بالعلاج ، وبعضها إشارات علاجية محضة.

وأفضل من كتب عن هذا المؤلف وترجمه هو «أبيل» الذى تعرف فيه على خمسة عشر «عرضا اكلينيكيا» منهم التورم والاستسقاء والقيلة المائية والانفيزيم والجـذام. إلا أن علماء اللغة لم يرضوا عن ترجمته وتفسيراته ، اذ أن تلك الأسماء لم يصحبها وصف يبرر هذه الترجمة ، مما أدى الى الرأى بأنه تجاوز الحدود المعقولة فى التفسير. ومع هذا فإنى أذكر بعضها على سبيل المثال .

توجيهات خاصة بورم فى الأوعية : «اذا تفحصت ورما فى الأوعية فى طرف من الأطراف ، ووجدته نصف كروى ، يتضخم تحت يدك كل مرة (أى ينبض) ، ولكنه اذا فصلته عن بقية الجسم لا ينبض ، وبهذا لا يمكنه أن يتضخم أو أن ينكمش ، قل فى شأنه أنه ورم فى وعاء ، أنه مرض سأعالجه » .

وصـف الفـتق : توجيهات خاصة بورم غطاء قرنى البطن (أى الحدود السفلى للبطن التى تشبه القرنين فى شكلها) : اذا تفحصت تورما فى غطاء قرنى البطن فوق العانة ، فضع أصبعك عليه ، وتفحص بطنه ، وأطرق على أصابعك ، فاذا تفحصت .. ما برز ، وظهر فى اثر سعال ، فعليك أن تقول فى شأنه هذا ورم فى غطاء البطن .. هذا مرض سأعالجه .. الخ.

ونلاحظ فى هذين الوصفين دقة الوصف ، إذ أنهما أبرزا أهم النقط فى

تشخيص الورم الشرياني والفتق. وهي في الأول أنه ينبض ، وأن النبض يتوقف اذا فصل بينه وبين الوعاء الأصلي (كما أن نشأة تلك الأورام من اصابات الأوعية ذكرت صراحة ، وأن وصل النبض اليها من الشريان فوقه عرف أيضا). وفي حالة الفتق ظهوره بعد السعال ، كما أنه ذكر طريقة الفحص بطرق الأصابع التي ابتكرها من جديد « اونبروجر» في القرن السادس عشر الميلادي.

وصف جميل للذبحة الصدرية : اذا تفحصت مريضا بالمعدة ، يشكو من آلام في ذراعه وصدره ، وناحية من معدته .. فقل بصدده : هذا شيء (أي روح) دخل من فمه والموت يهدده.

ولا تقتصر أهمية موسوعة إيبرز على الأوصاف الاكلينيكية التي جاءت بها ، اذ أنها تعتبر أيضا مرجعنا الأساسي في علم عقاقير المصريين ، وفيما نسميه الآن المادة الطبية.

ومن الوصفات العلاجية التي جاءت بها ، ما هو مركب من عقاقير فعالة ما نزال نصفها الى اليوم ، وان كان استعمالها يحاط أحيانا باجراءات شبيهة بالسحر. كأن توصف في أشهر معينة من السنة فقط ، أو مصحوبة بالتراتيل والبخور .. الخ.

ومنها ما كان سحريا خالصا ، يعتمد على اثارة الاشمئزاز في الروح الشريرة التي حلت بالجسم وأحدثت به المرض. أو على أحد ضروب التفكير الروحاني الأخرى التي سبقت لنا مناقشتها.

وسيأتي ذكر كل تلك المواد في باب العلاج وسأكتفي بأن أذكر أن من تلك الوصفات وسائل لمعرفة جودة لبن الأم ، ولتشخيص الحمل ،

وللاجهاض ، ولتحسين رائحة الفم .. ومنها باب فى علاج عضة تمساح وفرس البحر والسبع ، يشابه لفافة هرست تشابها يكاد يكون تاما. وعلاج الأسنان المسوسة ، بحشوها بخليط من كاربونات النحاس والصمغ ومواد أخرى ، وهذا يعد من أكثر علاجاتهم اثارة للاعجاب. أما أوصاف أمراض النساء التى جاءت فى هذا المؤلف المحيط ، فإنها تشبه ما جاء فى بردية كاهون ، وعلى ظهر بردية إدوين سميث تماما.

ولعل أهم ما جاء فى هذه المكتبة المختصرة مؤلف عن القلب والأوعية وعنوانه : «بدء سر الطبيب: معرفة حركة القلب». ويبدأ بهذه الفقرة : «هناك أوعية منه (أى من القلب) لكل طرف. فإن أى طبيب ، أو أى كاهن من كهنة سخمت ، أو أى ساحر ، اذا وضع يده ، أو أنامله ، على القلب أو على ظهر الرأس ، أو على اليدين ، أو على المعدة ، أو على الذراعين ، أو على القدمين ، فانه يتفحص (بذلك) القلب ، اذ أن كل أعضائه مزودة بأوعيته ، أعنى أنه (القلب) يتكلم عن طريق أوعية كل طرف».

وقد وجد الأولون الذين درسوا هذا المؤلف صعوبة كبيرة فى تتبع نص هذا القسم ، بل عثروا على تناقض بيّن فيما ورد فيه من معلومات. لأنه ذكر حينا أن عدد الأوعية ٢٢ ، ثم قال انها ٤٦. إلا أن علماء اللغة تمكنوا من حل هذا اللغز ، وأوضحوا أن هذا المؤلف مشكل من مؤلفين مختلفين ، كل منهما قائم بذاته. أولهما كتاب نظرى عن القلب ، ووظيفته ، وعن الأوعية وأهميتها ، لم يرد به ذكر أى مرض أو علاج. بخلاف الثانى الذى تناول أمراض الأوعية والقلب وعلاجها. وهذان الجزآن اختلطا عند

الكاتب ، فنسخ جزءاً من المؤلف الأول ، ثم جزءا من الثانى ، ثم الجزء الثانى من الأول ، فبقية الثانى. ويماثل الكتاب الثانى ما جاء فى بردية برلين عن القب. وروى فيه تاريخ كشفه كما روته تلك البردية. وذيل بتعليق طويل يماثل ما اختتمت به تلك البردية أيضا. ومهما يكن من أمر الكتابين فإنهما يبرهنان دون مجال للشك على أن الأطباء المصريين عرفوا حركة القلب، وعلاقة حركته بنبض الشرايين المتطرفة ، وأطلقوا على الشريان الرئيسى القريب من القلب اسم «الوعاء» وهو فى الغالب الشريان الأورطى.

بردية هرست : وهي تقع فى ١٨ صفحة. وتصف ٢٦٠ حالة ، وردت ٩٦ منها فى بردية إيبرز أيضا ، ثم أنها تحوى بابا عن العظام ، وعلى الجملة فان تلك اللفافة أقل قيمة من بردية إيبرر وإن فاقتها فى بعض فقراتها.

بردية برلين: روى فيها مجاملة للنظرة اللاهوتية للطب ، أنها وجدت فى صندوق قديم مع كتابات عتيقة ، تحت قدمى الإله أنوبيس فى ليتوبوليس فى عهد الملك أوزافايس. وهى تشمل ٢٤٠ وصفة. تقع فى ٢٥ صفحة. نسخت ثلاث منها بخط مختلف. وفى كثير من أجزائها تكرار لبعض فقرات برديتى هرست وإيبرز . ثم انها مليئة بالأخطاء ، ومظاهر الإهمال ، وأقل مدعاة للاهتمام. وبها باب عن الروماتيزم ، وكتاب عن الأوعية يماثل ثانى كتابى بردية إيبرز فى هذا الموضوع. وإن ذيل بنبذتين ، إحداهما عن أصل هذا الكتاب ، وهى أكثر تفصيلا مما جاء فى بردية إيبرز ، والثانية تعد امتداداً وتوسعا لما ورد فيها ، ويمكن وضع هذا الجزء فى مستوى أعلى مما ورد فى برديتى هرست إيبرز

أما **بردية لندن** : وهى مسيحة ، أى أن الكتابة الاصلية مسحت عنها

ليكتب عليها ثانية (مما يدل على غلاء ورق البردى) فهى تقع وسيطة بين كتب الطب السابق ذكرها ، وبعض كتب الرقى ، مثل «تعاويذ الأم والطفل» و «كتاب السحر» الموجود فى تورينو. وقد وردت بها ٦١ وصفة ، منها ٢٥ فقط طبية. والباقى تعاويذ. والبعض منها أصول دخيلة على مصر.

الباب السادس

كتاب الطب السرى
أو بردية إدوين سميث والجراحة

يمكن تقسيم نظرتنا الى طب قدماء المصريين تاريخيا الى مرحلتين : مرحلة قبل كشف بردية ادوين سميث ، والمرحلة التى تبعت هذا الكشف. إذ أن المؤرخين كانوا يظنون فى أثناء الأولى ، أن الطب المصرى كان مكونا من قسط وفير من الشعوذة ، تصحبه معرفة جزئية للعقاقير والنباتات والتشريح. وأن استعمال تلك الأدوية كان مبنيا فى كثير من الأحوال على اعتبارات تتصل بالسحر ، أكثر من اتصالها بالطب. الا أن هذه البردية أقامت أول دليل على وجود طب منطقي عقلي ، أساسه الخبرة والملاحظة ، وعلم تشريح سليم. وهى تمتاز فى أسلوبها باستعمال لغة التخصص ، لغة قوية ، غنية بالتعابير والتشبيهات الدقيقة. وفى موضوعها ، بتبويب منطقى مرتب ، يدل على تقاليد طويلة وخبرات أصيلة سبقت تأليفها. وبخلوها من

يه نظرية ، أو أى مظهر من مظاهر الطب الروحانى ، التى تزخر بها المؤلفات الأخرى. وهى تصف ٤٨ مشاهدة فى جراحة العظام والجراحة العامة ، مرتبة حسب ترتيب أعضاء الجسم. تبدأ بالرأس ، وتتدرج الى الأنف والفك ، ثم فقرات الرقبة ، وفقرات الظهر ، والأضلاع ، والصدر ، والترقوة ، والكتف ، واللوح ، واليدين. ويحق لنا أن نتخيل أن الأصل كان يتناول بقية الجسم ، كالبطن والحوض والساقين .. الخ ، إذ أن آخر مشاهدة — وهى تتصل بالعمود الفقرى — تختتم بعبارة ناقصة ، كأن كاتبها تركها ليقضى أمراً ثم لم يتم كتابتها.

ويلاحظ أن طريقة العرض فيها تتسم بالنظام. فكل مشاهدة تبدأ بالعنوان التالى : «توجيهات بشأن ..». ثم يجىء الفحص ، ويبدأ بالعبارة : «إذا تفحصت إنسانا به ...». ويتبعه التشخيص : «فقل فيما يخصه إنه يشكو من ...». ثم المآل المتوقع ، وهو يعبر عن احتمالاته الثلاثة : الجيد ، والمشكوك فيه ، والميئوس منه. بالعبارات التالية : «سأعالجه» أو «سأكافحه» أو «مرض لن أعالجه».

وبعد ذلك يأتى العلاج ، وينتهى ببعض التعليقات والتفسيرات اللغوية أو الفنية التى — وان كانت موجهة الى قارئيها فى ذاك الوقت — تمكننا اليوم من تفهم مدلولات ألفاظ كثيرة وردت بها. ولنذكر على سبيل المثال الأوجه الجديرة باعجابنا فى تلك اللفافة.

١ — معرفة للتشريح غير ميسورة فى هذا الزمن. فان اللفظ الدال على المخ ورد — أول مرة فى التاريخ — فى عهد لم يكن فيه لهذا العضو تسمية فى أية لغة من اللغات. كما ورد ذكر «الكيس» المغلف له. وفى هذا إشارة صريحة للأم الجافة والأم الحنون ، وهما غشاءا المخ. أما النبذ الخاصة بالعظام

٢ ــ الدقة فى الفحص ، وصحة تفسير العلامات الاكلينيكية ، الأمران اللذان لا يمكن تحقيقهما إلا بمعرفة سليمة لقواعد فسيولوجية أساسية. فقد عرف صاحب هذا المؤلف معنى قرقرة العظام تحت اليد ، واستعان بها فى التفرقة بين الكسر والجزع ، الذى قال عنه بحق إنه اصابة للأربطة دون تغير فى وضع العظام. ومن التشبيهات التى تدل على أن الجراح كان يعنى بتفحص مريضه بيده ــ بل انه كان أحيانا يجرى الصفة التشريحية على المصابين ــ تشبيه كسر الجمجمة باناء من الفخار مثقوب ، وسطح المخ بتجعدات كتلك التى تعلو على النحاس عندما يذوب تحت تأثير النار ، وقوله فى كسور الرقبة : «إن الفقرة تنغرز فى الفقرة التى تليها كما تغوص القدم فى أرض منزرعة».

٣ ــ الأهمية القصوى التى أعيرت للنبض فى معرفة حالة المريض وحالة القلب. وقد جاءت فى أول الكتاب نبذة طويلة عن الشرايين والنبض ، ومواقع جسه. ومما يؤسف له أن هذه الفقرة وردت فى الصفحة الأولى المليئة بالثغرات ، مما زاد فى غموض معانيها. ومن العبارات التى أثارت بعض الجدل ، ما يمكن تعريبه على الوجه الآتى : «إن فحص المرض يشبه (عد أو قياس) مرض شخص لمعرفة وظيفة قلبه». وقد رجح «بريستد» أن هذا التعليق يشير الى عد النبض ، إلا أن هذا فرض ما يزال الشك يحوم حوله ، إذ أن النبض لا يمكن عده دون الاستعانة بأجهزة دقيقة لقياس الوقت. ومثل تلك الأجهزة لم يعم استعمالها قبل المملكة الحديثة. ولم يكشف منه إلا مزولتان مائيتان من عهد تحوتمس الثالث ومرنبتاح. ولكن إذا صح فرض بريستد ، فإن صاحب البردية يكون قد سبق أبقراط وديموقريط (القرن

الخامس قبل الميلاد) — اللذين لم يذكرا عد النبض — بألفى سنة أو تزيد. وقد لا يكون من مجرد الصدفة أن أول من عده هو هيروفيلوس (٣٠٠ ق م) الذى زاول مهنته فى الاسكندرية (بمصر) حيث كانت علاقة القلب بالنبض معروفة منذ ٢٥٠٠ سنة. وكانت المزاول المائية معروفة منذ زمن ، بل يمكن التخيل — إذا فرض أن عد النبض ورد ذكره فعلا فى « كتاب الأطباء السرى» (انظر بردية إيبرز) — انه كان سراً من الأسرار التى أخفاها العلماء المصريون عن أبقراط وغيره من الزوار الاغريق. ونعتمد فى تقديمنا ذلك المؤلف على هذا النحو على بريستد ، الذى قارن القسم الوارد عن النبض فى بردية إدوين سمث بنظيره فى بردية إيبرز الذى كان عنوانه «بدء كتاب الأطباء السرى» ، وقرر أن المؤلفين نقلا عن أصل واحد ، ورجح أن برديته كانت تستهل — قبل أن يأتى بها الدهر ما أتى — بالعنوان نفسه وهو : «كتاب الأطباء السرى».

٤ — عدم الاكتفاء بدقة الوصف المحلى للإصابة ، بل الربط بين ظواهر متلازمة فى أجزاء متباعدة من الجسم ، تكون منها — أول مرة فى التاريخ — صور أكلينيكية مميزة. وقد قيل أن جالينوس هو أول طبيب حقق هذا التقدم فى التفكير الطبى ، إلا أن طبيبنا العبقرى سبقه بسبعة عشر قرنا. ومن أمثلة تلك المتلازمات التى وصفها ، إصابات العمود الفقرى المصحوبة بالشلل والتبول غير الإرادى والاستمناء ، مع تخصيص الاستمناء باصابة فقرات الرقبة الوسطى ، والربط بين كسور عظمة الصدغ والصمم ، وبين إصابة ناحية من المخ والشلل النصفى. وتدل تلك الملاحظات على معرفة أمرين هامين ، هما أن ناحية الإصابة تحدد ناحية الشلل ، وأن النخاع الشوكى والمخ يسيطران على حركة الجسم ، ولو أن

الصلة بين المخ والنخاع ، أو بين الجهاز العصبى والأعصاب ، بصفتها امتدادا له ، لم ترد بعدئذ إلا فى القرن الرابع قبل الميلاد ، فى كتابات إغريق الاسكندرية (إيرازستراتس وهيروفيلس). وأن اللفافة قالت إن الشلل يحدث على ناحية الاصابة نفسها ، وهو عكس المعتاد ، ولعل ما نسميه برد الفعل Contre - coup هو ما خدع المؤلف فى هذا الصدد.

٥ ــ اهتمامه بتتبع أطوار المرض للوصول الى التشخيص ، وللتكهن بالمآل. نذكر على سبيل المثال حالة رأى البعض فيها التيتانوس ، ورجح الأستاذ الدكتور كامل حسين أنها الالتهاب السحائى ، وقسم فحصها الى فحص أول وفحص ثان وفحص ثالث. فحلل عوارض كل مرحلة من المراحل الثلاث ، وناقش ما يمكن عمله لكل منها. وما يمكن استنتاجه من حيث سير المرض ، ومآله ، من تطور العوارض ، بين فحص وآخر.

٦ ــ الانتقال من التشخيص الى التكهن بالمآل. فيقول مثلا إن مآل كسور الجمجمة سيىء إذا كان المخ لا ينبض تحت اليد ، أو إذا كان العظم منخفضا داخل المخ ، أو إذا كان لوحظ تصلب فى الرقبة ، أو نزف من الأنف أو الأذن أو تحت الملتحمة. وكلها علامات حدوث مضاعفات معروفة تزيد فعلا من خطورة الاصابة.

٧ ــ دقة وصف التحريكات العلاجية. ومن أهم الأمثلة لذلك وصف كيفية إعادة جزئى الترقوة المكسورة إلى محلها. وهذه الطريقة التى قال عنها عميد المختصين الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين ، إن العلم الحديث لم يصل الى أحسن منها ، وانها تؤدى الى درجة تامة من الشفاء. واليك هذا الوصف : «اذا تفحصت رجلا مصابا بكسر فى الترقوة ووجدت بها قصراً ، فقل : هذا مرض سأعالجه. وألقه على ظهره ، ثم ضع بين اللوحين

وسادة حتى يبتعد جزءا ترقوته ، ويرجع المكسور الى موضعه. وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتاب على الجانب الداخلى من ذراعه ، وضمده بمرهم «الأيمرو» ثم فى الأيام التالية بالعسل.

وهناك وصفة أخرى لرد فك مخلوع. وهى الطريقة التى وصفها الإغريق بعد تاريخ كتابة البردية بعشرة قرون ، وهى الطريقة الموصوفة أيضا فى أحدث مؤلفات الجراحة.

٨ ـــ تباين المعدات الجراحية التى كان يستعين بها المؤلف فى العلاج ، منها :

(١) قماش نباتى يطلى بالدواء قبل وضعه على الجسم ، ويوضع كما هو على الجروح لامتصاص الافرازات والدم.

(٢) فتائل أو حشو أو سدادات من الكتان تستخدم أما مشبعة بعقار ، وأما نقية للتنظيف. أو بصفة جبائر صغيرة لحفظ شكل الأنف إذا كسرت عظمته.

(٣) الأربطة : وكان يصنعها المحنطون ، على أن ممارسة التحنيط قد أكسبت المصريين مهارة فائقة فى ربطها.

(٤) الأربطة اللصاقة ، وكانت توضع منها قطعتان مستعرضتان على الجرح لضم حافتيه.

(٥) الخياطة ، وقد ذكرت ست مرات.

(٦) الكيّ ، وكان يجرى بالخراز النارى (مثقاب توليد النار) وهو جهاز يسخن به طرف قطعة مدببة من الخشب بحكها فى ثقب من قطعة خشب أخرى ، وقد أوصت بردية إيبرز كذلك باستعمال مفصد محمى.

(٧) الجبائر (شكل ٨) وهى إما من قطع من الخشب ملفوف عليها

كتان ، توضع فى الفم لحفظه مفتوحا حتى تتيسر تغذية المريض إذا تعذر عليه فتح فمه ، وإما جبائر من الخشب المبطن بالكتان ، أو لفافات صلبة من الكتان دون سند من الخشب ، تثبت بها العظام المكسورة.

(٨) وأخيراً حوامل من الطوب المجفف فى الشمس (يلاحظ استعمال كلمة «أدوب» التى أخذت منها لفظة الطوب) أوصى المؤلف بوضعها تحت ذراعي المريض الذى لا تسمح له حالته بالاستلقاء على ظهره. ويرجح «بريستد» أنها كانت تصاغ على شكل جسم المريض لتريحه ، كما كانت تصاغ الأربطة المقواة حول الموميات.

وقد حار علماء المصريات فى شخصية مؤلف هذه البردية . ورجح «بريستد» أنها قد تكون من تأليف إمحوتب ذاته. ولم يوافقه على هذا الاستاذ الدكتور محمد كامل حسين لأسباب تحليلية دقيقة. أهمها أنه يبدو بعيداً كل البعد — فى تفكيره ومعاملته المرضى — عن الكهنة ، أو عمن تلقوا العلوم منهم ، ودرجوا على أسلوبهم فى التفكير. وأنكر أيضا الدكتور كامل حسين انه كان جراحا حربيا كما قال البعض الآخر ، حيث ان جروح الحرب لكثرتها ، ولظروف الهجوم والدفاع والحركات الحربية ، لا تدع وقتا كافيا لدراسة كل حالة الدراسة التفصيلية التى تنم عليها اللفافة.

ثم لاحظ الدكتور محمد كامل حسين أيضا أن الاصابات التى تناولتها اللفافة ، من النوع الذى يحدث عن سقوط من ارتفاع. وفى مثل بناء الهرم الأكبر الذى شيد فى ثلاثين سنة ، تحدث إصابات كثيرة من هذا النوع ، متباعدة فى الزمن تباعداً سيسمح لمتولى أمرها بأن يدرسها دراسة وافية ، وأن يتأمل فيها تأملا كافيا. فرجح أن المؤلف هو عامل من أولئك الذين شاركوا فى تشييد الهرم الذى استغرق بناؤه وقتا طويلا. عامل امتاز بعبقرية

نادرة ، وبحبه الجاره ، وبقوة ملاحظة ثاقبة ، بلغته ما وصل ليه من شأن.

الا أن دراستنا لأطباء هذا العهد ، تمكننا من القطع ـــ دون مجال للشك ـــ بوجود فئة من الأطباء الحكوميين ، يمكن تشبيههم بأطباء الصناعات ، معينين خصيصا لمرافقة العمال ، وعلاجهم ، والعناية بهم فى أثناء عملهم.

إلا أن ما سبق قوله عن البردية لا يخص غير قسم منها. إذ انها مكونة من ثلاثة أقسام. أهمها وأطولها هو ذلك الذى وصفناه وسمى بـ «كتاب الجروح» ، وهو الذى قال عنه «بريستد» : إنه قد أحدث بدون شك ضجة كبيرة فى العالم الطبى عند ظهوره. وأزيد أنه أحدث ضجة كبرى بين طلبة تاريخ الطب عندما ترجم ونشر.

أما ظهر تلك البردية ، فجزء منها مكتوب بمثل خط صفحتها الأولى ، وجزء بخط آخر ، وهو يحوى ٨ تعاويذ «لإبعاد هواء الطاعون السنوى». ووصفة قال عنها العلماء خطأ أنها سحرية ، وتعنى باعادة الشباب الى الشيوخ. ولكن التدقيق فى قراءتها يبين أنها لا تزيد على كونها وصف لكيفية استخراج زيت الحلبة واستعماله دهانا للشيوخ ، لإزالة الصلع والنمش وكل علامات الشيخوخة التى تشوب الجلد. ومن العجيب أن الجمهور فى مصر يستعمل الحلبة لاستعادة القوى.

وسأذكر أولى تلك الوصفات لأظهر التباين الكلى بينها وبين الجزء الأول ، وهى خاصة بإبعاد هواء الطاعون السنوى (أو هواء سنة الطاعون).

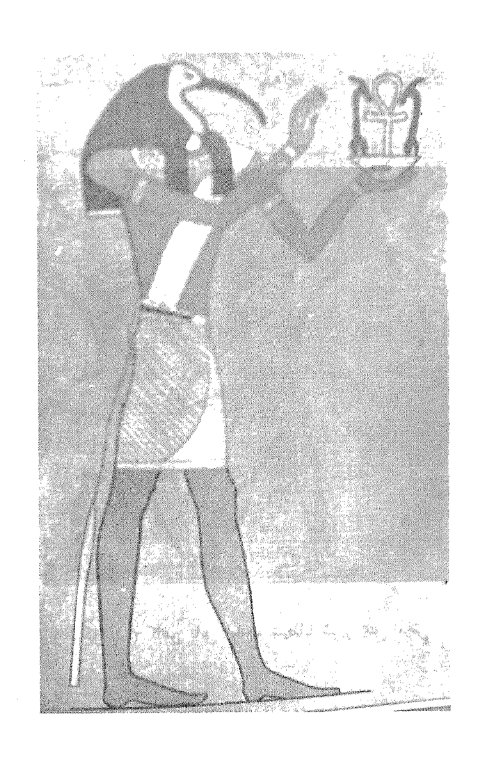
وفيهـا ــ مع طابعـها الروحـانى الظاهـر ــ أل ذكـر لأرياح تحمـل الأمـراض :

«تعويذه تتلى على ريشتى رخم توضعان على شخص لحمايته أينما ذهب. إنها حماية ضد السنة ، تطرد المرض فى سنة الوباء : يا حامل اللهب فى وجهه! يا سيد الأفق ! حدّث صاحب دار همسوت الذى يجعل أوزيريس يزدهر ، يا نخبت ، يا رافعة السماء من أجل أبيها ، أحضرى الريشتين واربطيهما حولى لأعيش» ... وما الى هذا من توسلات غامضة المعنى مليئة بالإشارات الى الأساطير.

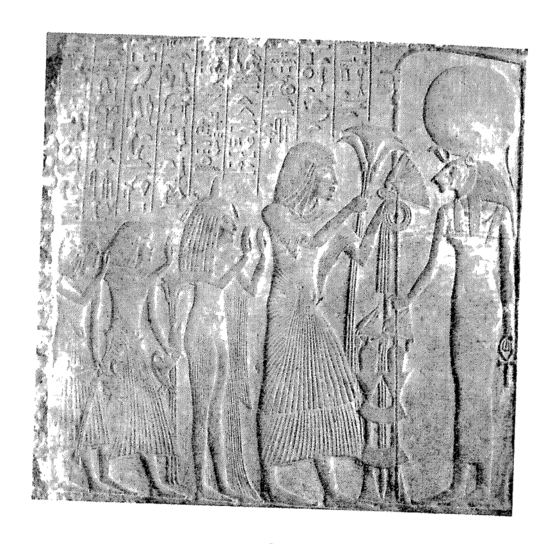
ولا شك فى أن تلك الأقسام الثلاثة ــ التى تختلف فى اللغة والجوهر والروح والخط ــ استنسخت من أصول متباينة. لم تجمعها على نفس البردية إلا الصدف التى وضعتها أمام الكاتب على هذا الترتيب. شأنها فى ذلك شأن البرديات الطبية قاطبة. ولنا أن نأسف إذ أن القسم الجراحى لم يأت كاملا ، ليرشدنا الى كل ما كان قد حققه جراحو ذلك العهد.



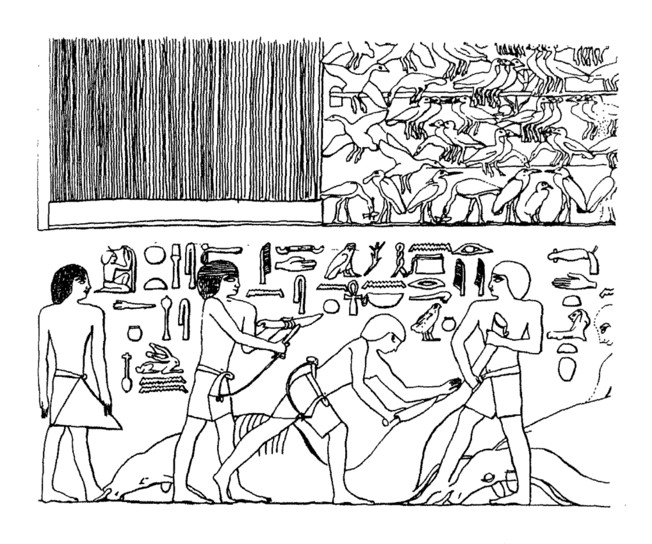
(شكل ١) كاهن بابلى يهاجم شيطانا شريرا يمثل المرض



(شكل ٢) الآله تحوت ذو رأس أبي منجل



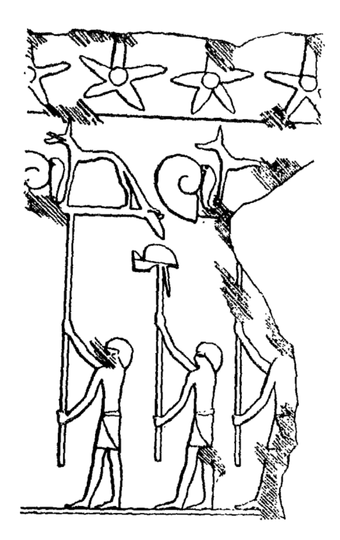
(شكل ٣) الآلهة اللبؤة سخمت



(شكل ٤) الطبيب الكاهن ونن ــ نفر يشرف على ذبح البهائم



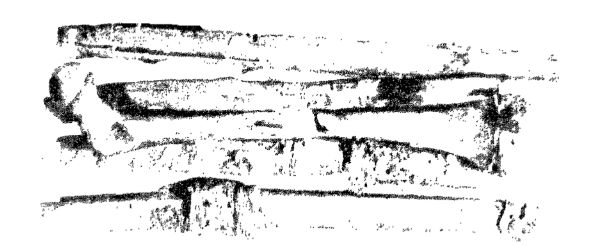
(شكل ٥) أيرى ــ نختى يشتم الدم الذى يقدمه له القصاب ،
ويصرح : إنه طاهر



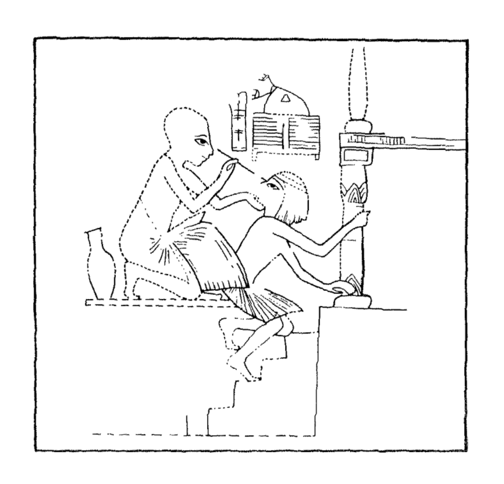
(شكل ٦) كهنة يحملون علم الاله دواو يعلوه رمز هذا الإله



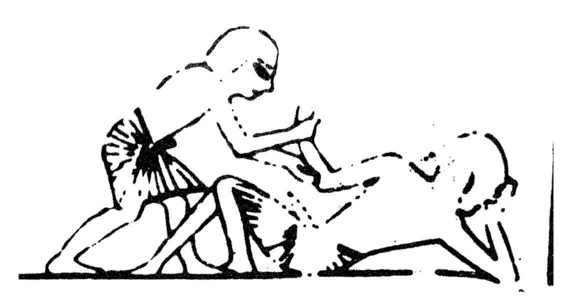
(شكل ٧) الإله امحتب



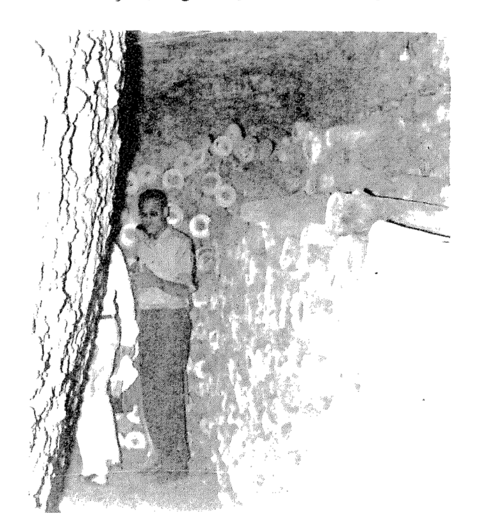
(شكل ٨) جبائر من عهد أولى الأسر



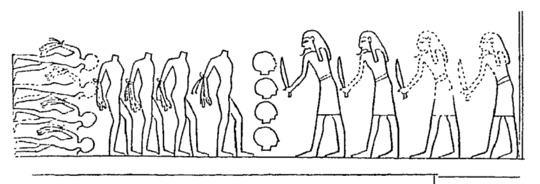
(شكل ٩) تقطير العينين ، عن مقبرة ايبوى

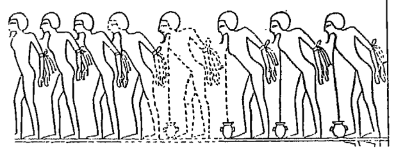


(شكل ١٠) أو كتف مخلوعة ، عن مقبرة ايبوى

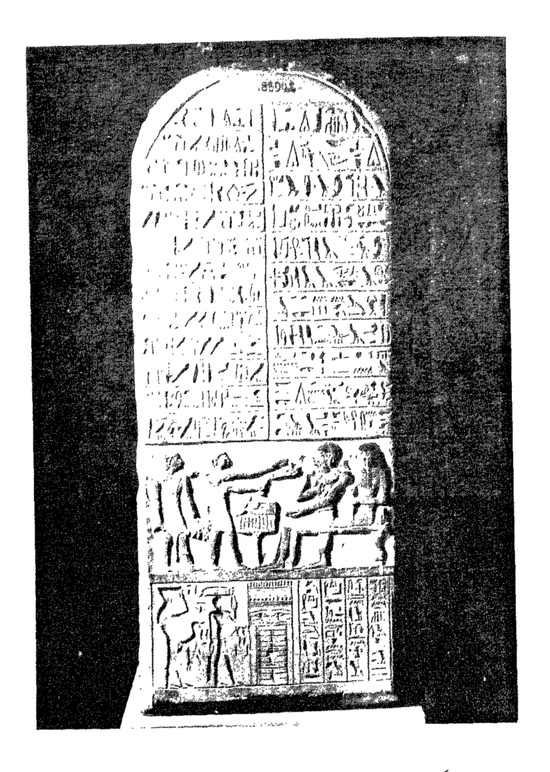


(شكل ١١) أحد السراديب بسقارة التى وجدت مكتظة بملايين
من أوانى الفخار التى أودعت بها موميات طير أبى قردان الممثل
للإله تحوت

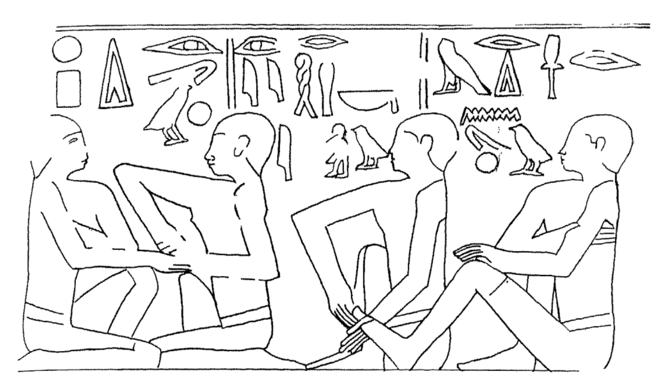




(شكل ١٢) نى ـــ عنخ . سخمت مفتش أطباء أسنان
ساحورع . وإلى أسفل منقورع عنخ صانع
الأسنان ومساعد نى ـــ عنخ ـــ سحمنت



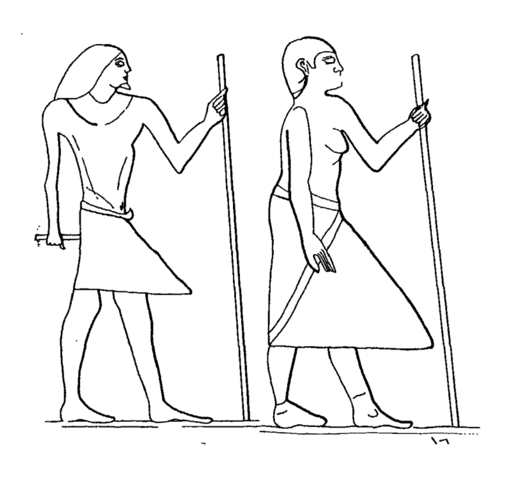
(شكل ١٣) عنتى — ام — جت الطيب قاهر العقارب وهو
لقب قد ينم عن اختصاص سحرى



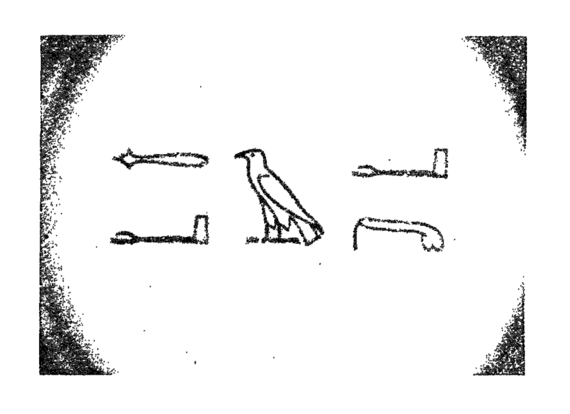
(شكل ١٤) منظر للتدليك أو لتحريكات طبية فى مقبرة عنخ ــ ما ــ حور



(شكل ١٥) العناية بالأظافر ، عن مقبرة بتاح ــ حتب بسقارة



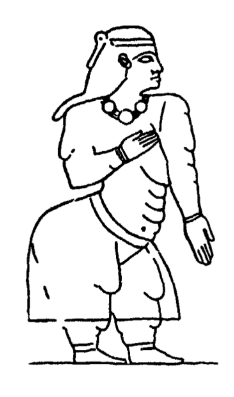
(شكل ١٦) صاحب مقبرة سابو ، يبدو بدينا تارة ونحيفا طوراً
(متحف القاهرة)



(شكل ١٧) كلمة « عاع » بالكتابة الهيروغليفية وتشمل هذه الكلمة رسم للذكر



(شكل ١٨) تمثال من الحجر . يمثل مرض بكترف





(شكل ١٩) ملكة البنط ورسم كاريكاتورى لها من العصر
الفرعونى (الدير البحرى)

الباب السـابع

المدارس والأطباء

من المحقق أن نشأة أولى مدارس الطب فى مصر الفرعونية ترجع الى عهد الأسرة الأولى. وبعض هذه المدارس بلغ شأوا كبيراً فى ميدان الشهرة. ومن بينها مدرسة فتحت فى سايس للمولدات اللاتى كن يقمن بتدريس أمراض النساء للأطباء أنفسهم ، ومدرسة هليوبوليس ، ومدرسة إمحوتب بمنف التى زادتها شهرة مكتبتها الزاخرة بالمؤلفات والتى كان يتردد عليها الأطباء حتى فى عهد جالينوس قبل الميلاد بقرنين. ويعتبر ليفيبر ان تلك المدارس التى كانت تسمى «بيوت الحياة» ، كانت بمثابة حوانيت للنساخين يلتقى فيها هؤلاء — وهم على جانب كبير من العلم — بالعلماء . ويتحدثون فى العلم والفلسفة ، مثلها مثل «الموسيون» الذى ازدهر فى الاسكندرية فيما بعد.

أما عن التعليم الأكلينيكى كما نفهمه اليوم ، فلم يكن له وجود فى تلك المدارس. وكان ينتقل تبعا لقول ديودور الصقلى من الطبيب أو الكاهن الى

ابنه. ثم إن الطالب كان يتردد على هذه المكاتب لمقابلة العلماء والفلاسفة للاستنارة بآرائهم. وقد استمر هذا التقليد حتى العصر المسيحى ، فقد وردت فى لفافة «شاسينا» القبطية العبارة الآتية : «هذه قطرة حضرتها مع أبى».

وهذه التقاليد العائلية اتسمت بها العلوم فى كل البلاد فى هذه العصور ، فاننا نجد الطب عند الاغريق وقفا على أسرة الاسقلبياد ، سلالة اسقلابيوس ابن الإله أبولو ، والتى كان ينتمى اليها أبقراط. كما أن نص القسم الأبقراطى يوعز بمثل هذه السرية بين الأب ونجله.

وعندما أباح أمازيس للاجانب دخول مصر ، وفد إليها عدد كبير من الإغريق ليتلقوا فيها العلم. وقد دونوا فى كتبهم ترجمات حرفية لكتابات مصرية. غير أن من المشكوك فيه أن يكون الكهنة قد ائتمنوهم على علومهم السرية. ويقول سترابو فى هذا الصدد ، ان الكهنة أخفوا عن افلاطون وأوديكسوس الجزء الأكبر من علمهم بالرغم من أنهما عاشا بينهم ثلاث عشرة سنة.

وهذه الأسرار كانت تتصل بالعلوم والفلك والطب والميتافيزيقيا. بل ان كتب تحوت السبتة التى تتضمن معلومات عن الجسد والأمراض والاجهزة الطبية كانت تحفظ فى خزانة المعبد. وقد تعلّم ابقراط فى القرن الخامس قبل الميلاد فى سراديب المعابد المصرية والأهرام على بعض تلك الأسرار التى لم تكن تفشى لغير الكهنة.

وبالرغم من الهيبة التى كانت تشمل هذه المدارس ، فقد عانت من نتيجة بعض الغزوات ، خصوصا غزو قامبيز ، الذى أمر بهدم المعابد عقابا للمصريين ، عندما رآهم يحتفلون بعيد الحصاد بعد عودة حملته

الفاشلة من الجنوب ، فظنهم مبتهجين بهزيمته. وقد أعاد بناء بعضها ابنه دارا الأول ، عندما أراد استمالة المصريين. فكلف بهذه المهمة أحد موظفيه فى فارس ، وهو المصرى «اوزاهوريسنت» الموجود تمثاله بمتحف الفاتيكان والذى روى كيف أدى المهمة بالألفاظ الآتية المنحوتة على تمثاله:

«أمرنى صاحب الجلالة الملك دارا عندما كان موجوداً فى «إيلام» بصفته الملك الكبير لكل البلاد وأول أمراء مصر ، بالعودة الى مصر لإعادة تنظيم قاعة بيت الحياة بعد أن هدمت ، وقد قادنى أحد البرابرة متنقلا من بلد الى بلد كأمر الملك ، وقد فعلت كما أمرنى الملك. جهزت المنزلين بطلبة من أولاد الأعيان ، ولم يكن من بينهم أحد من أبناء الطبقة الدنيا .. وأمرنى صاحب الجلالة ان أقدم اليهم كل شىء طيب حتى يستطيعوا أداء عملهم ، ومدتهم بكل احتياجاتهم ، وبكل الأجهزة التى جاء ذكرها فى النصوص التى وصلت الينا من قبل. وقد أراد جلالته هذا لعلمه بقيمة هذا الفن فى انقاذ حياة كل شخص مصاب بمرض ... الخ.».

وهذا يدل أولا على صلة الطب بالكهنة. وثانيا على اهتمام الأمراء بهذا الفن. وثالثا على النظام الدقيق الذى كان يسود هذه المؤسسات.

ممارسو الطب : لقد ورد فى بعض اللفائف العبارة التالية: « إذا وضع كاهن الإلهة سخمت أو الطبيب أو الساحر يده على يد المريض وقفاه وأعضائه و ... فانه يعرف بهذا مرضه». وهذه العبارة تدل بوضوح على أن هؤلاء الثلاثة كانوا يمارسون مهنة العلاج.

الكهـــنة : كان الكهنة فى أول أمرهم مجرد وسطاء بين المريض والإله الشافى ، يعرفون طرق التوسل اليه والسبل الى اجتذاب رضائه.

على أنه — إذا كان أول استعمالهم للعقاقير سحريا ، مبنيا على التشابه أو على الأساطير ، أو على مبدأ تقديم القربان للآلهة الطيبة لاستمالتها ، والأشياء الكريهة للآلهة الشريرة لإبعادها ، وعلى جعل تناول الأدوية مقرونا بالتعاويذ — فلا بد أن مرور الزمن قد أدى فى بعض الأحيان الى اغفال التعويذة. وبالتالى الى ملاحظة أن بعض العقاقير لها فائدة ذاتية. ثم إن الكهنة لم يكونوا مجرد كاتمين لاسرار دينية ، وإنما كانوا على جانب كبير من العلم والدهاء. وكانوا يعرفون فائدة النباتات ويستعملونها لتعزيز تعاويذهم ، ويلمون بقدر من الكيمياء يسمح لهم بتحضير المراهم والبلاسم والمداد والزجاج. وقد ردت كلمة كيمياء الى أصل مصرى وهو «شيما» الذى كان مستعملا فى مصر القديمة .. كما يرجع البعض أصل كلمة «Pharmacy» الى كلمة «Ph-arma-ka» التى وجدت منقوشة على تمثال للإله تحوت ، إله العلم والطب ، والتى تعنى «الذى يمنح الصفاء».

والى الكهنة يرجع الفضل فى إدخال كثير من الوصفات الصحية بواعز من الدين ، مثل حظر أكل الخنزير والبجع. والصيام أربعين يوما كل عام مع تجنب العلاقات الجنسية ، وتعاطى الملينات مرة كل شهر ، والاستحمام مرتين كل يوم .. الخ. كما أن الكهنة كانوا يتبعون قواعد خاصة يفرضونها على أنفسهم مثل إزالة ما ينمو على أجسامهم من شعر مرة كل ثلاثة أيام.

وكان علاج الكهنة يقوم على نظرية واضحة ، وهى أن الانسان قد منح عند ولادته روحا خالدة غير قابلة للموت الا بالقتل. ومن هنا كان المرض يحدث نتيجة لتأثير عامل قاتل خارجى وهذا العامل ، اما إن يكون ظاهراً كالنار والسلاح ، أو خفيا كالجن. ولذلك كانت أول خطوة لعلاج الكهنة للأمراض الباطنية استخدام التعاويذ ، لانتزاع هذا العنصر القاتل ، حتى

يتسنى للجسم أن يستعيد سلامته.

ومع ذلك فقد كانت عقائد الكهنة الحقيقية أسراراً لا تفشى الا للأخوان المكرسين. وكانت تختلف كثيراً عما يدلون به لغير هؤلاء. فإن أول من أنكر أى تأثير للأرواح على المرض هو أبقراط فى القرن السادس قبل الميلاد. وجدير بالذكر أنه أمضى وقتا غير يسير تلميذاً للكهنة المصريين. وأغلب الظن أنه عرف عنهم بعض الأسرار ، ثم أفشاها حين أتاح له ذلك محيطه الذى كان يضم كبار فلاسفة عصره من الميتافيزيقين أمثال سقراط.

الأطباء : وكانت مكانتهم طيبة فى المجتمع. وليس أدل على هذا من أن زوزير فرعون إمحوتب ، كان يلقب باسم «سا» الشافى ، والطبيب الإلهى. ومما ذكره مانيتو من أن الملوك أنفسهم لم يتعففوا عن ممارسة هذه المهنة ، وأن الملك أثوتيس نجل مينا وضع كتابا فى التشريح ، وأن أوزافاييس (٣١٠٠ ق م) حقق تقدماً كبيراً فى معرفة الشرايين. ومن أن زورقا من زوارق القصر النيلية كانت مخصصة لتنقلاتهم.

وامتدت شهرتهم الى البلاد المجاورة ، فنرى فى عهد أمنوفيس الثانى أميراً سوريا تصحبه زوجته ويتبعه خدم كثيرون ، محملون بالهدايا ، يزورون آمون طبيب فرعون فى طيبة. ويروى هيرودوتوس أن قيروس عندما مرض بالرمد ، طلب من فرعون أمازيس أن يرسل اليه طبيبا يكون أمهر أطباء مصر.

وقد مارس الطب عدة فئات من المحترفين. وكانوا مقسمين الى عدة شعب من أهمها الأطباء الموظفون ، وهم أطباء البلاط والحكومة والجيش ، وكانت القابهم تتدرج تدرجا تصاعديا ، وبعضها رنان للغاية. ولاغرو فإن مثل هذه الألقاب كانت تخلع على كبار الموظفين حتى وقت قريب فى

العهد العثمانى. فنرى مثلا محمد على باشا عندما يمنح كلوت بك رتبة يوجه إليه الألقاب التالية:

«فخر الملة المسيحية ، حكيمباشى الجهادية ، قدوة أمراء المسيحية ، عمدة كبراء الطائفة العيسوية ، رئيس مجلس شورى الأطباء.. قد عيناك مفتشا عاما للشئون الصحية ، لعساكرنا المجاهدين البريين والبحريين ، ومشرفا على الخدمات الطبية والبيطرية والصيدلية».

وكانوا يتقاضون مرتبات من الحكومة ، فكان علاج الفقير مضمونا. وكانوا يتبعون الجيش فى انتقالاته. وهم ولا شك نواة تقدم الجراحة فى هذا العصر. وكان بعضهم ملحقا بالمصانع أو محال العمل ، كما يظهر من رسم وجد على جدار محجر حتنوب ، يمثل طبيبا موظفا بالمحجر وألقابه: «رئيس كهنة سخمت ، رئيس السحرة ، طبيب الملك». ومن آخر فى مقبرة وصفها دافيس نرى فيها الصناع والفنانون ، وهم يعملون فى مختلف أجزاء عمارة المعمارى «أيبوى» (شكل ٩). وبينهم شخص يعدل كتفا مخلوعا (شكل ١٠) وآخر ينتزع من عين أحد العمل جسما غريبا. بينما يتألم ثالث من «شاكوش» وقع على قدمه.

وكانوا يجهزون ويناولون الأدوية بأنفسهم ، ولذلك فلا يوجد أثر لأية وصفات «روشتات» يتركها الطبيب للمريض. سوى بعض قطع من الخزف (أوستراكا) وصفها جونكير. والغالب أنها كانت مذكرات كتبها طبيب عند زيارته للمريض ، للاسترشاد بها عند تحضير الدواء بعد عودته الى منزله.

والظاهر أنهم الى جانب أعمالهم الرسمية كانوا يزاولون مهنتهم من أجل الجمهور ، ويحظون منه بهدايا ثمينة. ولكنى أشك فيما يروى فى هذا المقام

(والتبعة على الراوى) من أن الطبيب كان يحلق شعر مريضه قبل بدء العلاج ، ثم يعيد حلقه بعد الشفاء. وهنا يقدر أتعابه على أساس وزن الشعر. وكان ذلك من شأنه أن يرضى الصلع ، وأن يشجع على اطالة فترة العلاج. ومن جميل تقاليدهم أن الطبيب كان يقتطع جزءاً من أتعابه يخص به المعبد الذى تلقى فيه علومه الطبية ، وقد جمع بعضهم ثروات طائلة مثل الطبيب الذى ذكره جونكير والذى كان يملك ١٨٢ منزلا فى طيبة.

وأشهر الأطباء فى مصر الفرعونية هو ولا شك «إمحتب». ومعنى هذا الاسم «الذى أتى سالما». وقد عاش فى عهد الأسرة الثالثة ، أى قبل الميلاد بحوالى ثلاثين قرناً. وقال عنه سيرويليام أوزلر «أنه أول شخصية طبيب ظهرت من غيوم قديم الزمان». وقد شك المؤرخون أخيراً فى أنه كان طبيبا ، وبنوا شكهم هذا على أنهم لم يجدوا فى النصوص المعاصرة له أو القريبة منه أى ذكر لمزاولته مهنة الطب التى لم تذكر بين ألقابه إلا بعد دخول الفرس. أى قرابة عشرين قرنا بعد وفاته ، وكان كبير وزراء فرعون الهرم المدرج بسقارة ، ومعماريا فذاً. إذ أنه أول من استعمل الحجر فى البناء فى تاريخ الإنسانية ، وأول من تخيل ونفذ مجموعة بنائية ضخمة ، تظهر لكل عين فوق الهضبة الغربية. وكانت ألقابه «كاتم سر ملك مصر السفلى ، والأول تحت ملك مصر العليا ، مدير ادارة القصر ، نبيل بالوراثة ، كاهن هليوبوليس السامى ، مراقب أبنية مصر العليا والسفلى ، مراقب بناء مدينة الهرم ، وزير ، رئيس طقوس زوزير ملك مصر العليا والسفلى ، محاسب الحبوب الأول لملك مصر العليا والسفلى ، أبو منجل ، وناسخ كتاب الإله.

وقد وصل الى مجد كبير ، وخلد اسمه الى حد أنه آله فى عصر سايس الفارسى بأن نسب الى سلالة بتاح وسخمت ، فقيل إنه ابنهما. وحل محل

«نفرتم» فى ثالوث منف الكبير مع بتاح وسخمت .. وخصصت له ثلاثة معابد على الأقل هى معابد منف وطيبة وفيله .. وكان النساخون يتوسلون اليه قبل كتاباتهم ، فيصبون الماء على تماثيله قائلين: «ماء من قنينة كل كاتب لروحك يا إمحتب» .. وتنازع الأغريق تبعيته ، فقالوا إنه أسقلابيدس اله الطب وابن أبولو فى أساطيرهم (شكل ١١).

وقد ورد ذكر الكثيرين من الأطباء الذين لم يصلوا إلى منزلة إمحتب . جمعنا منهم حوالى ١٣٠. وهو عدد ضخم بالنسبة لقدمهم ، وبخاصة إذا قورن بندرة أسماء الأطباء التى وصلتنا أخبارهم عن الحضارات القديمة الأخرى كحضارة أشور ، ولكنه ضئيل بالنسبة الى طول تاريخ مصر الذى يمتد على ثلاثة آلاف سنة. ومع ذلك فإن النصوص تعرفنا بما يكفى لرسم صورة لعملهم وحياتهم ومكانتهم الاجتماعية فى شئ من التفصيل .

كانت المهنة الطبية مقسمة إلى درجات يشغل أولى درجاتها الطبيب. وكان يسمى « سونر» أو «سينو» وكانت تكتب وظيفته بعلامتين هيروغليفتين : السهم والإناء ، يتبعهما رجل جالس ، ولم يفرق بين الطبيب والجراح والبيطرى.

لقد ظن البعض ان الحرفين الأولين يمثلان المبضع وإناء الأدوية ، اللذين يستعملهما الرجل الجالس. ولكن المقارنة بالكلمة القبطية الدالة على الطبيب «سينى» تدل على أن الحرفين استعملا لمجرد قيمتهما الصوتية.وهناك تفسير آخر لأصل هذه الكلمة يشتقها من فعل «سون» الذى يعنى «قاسى». فيكون الطبيب الشخص الذى يعنى بالمقاساة.

وكان يرأس «السونو» رئيس للأطباء ، ثم يتدرج الهيكل إلى المفتش والعميد والمشرف والحاكم ، ومن ثمة الى رئيس لأطباء الشمال ورئيس لأطباء الجنوب ، ويتربع على القمة رئيس لأطباء الجنوب والشمال قاطبة ، والمرجح

أنه كان المسئول عن صحة الدولة أمام فرعون أو وزيره.

ومن المحتمل أن الوزير مريروكا زوج إبنة فرعون ، والمسئول عن القصر وعن الزينة الملكية وعن الحريم ، وأمين منزل الصباح حيث تقام مراسيم ارتداء الملك لثيابه ، ورئيس الكهنة الخ ، من المحتمل أنه كان أحد وزراء الصحة. هذا أن أحد ألقابه الرنانة الأربعة والثمانين ، وهو «رئيس طاقمى زورق أطباء القصر» يشير الى ذلك. حيث أنه غير معقول أن يكون شخص له هذا القدر من الأهمية مجرد رئيسا للجدافين. ولكن الإدارة المصرية كانت مقسمة إلى شقين. شق الجنوب وشق الشمال ، منذ بداية عهدها ، وحتى بعد ضم شطرى الوادى ، فالمرجح أن يكون «طاقما الزورق» استعارة لقسمى الإدارة الطبية المصرية.

إن بعض الأطباء لا نعرف عنهم سوى صور دون أسماء ، والبعض نراه مرسوماً وهو منهمك فى عمله. إلا أن كبار الأطباء نالوا أعلى التقدير من لدن الفراعنة. ففى تل العمارنة ، عاصمة أخناتون ، رسم طبيب الملك «بنتو» وهو يتسلم قلادة ذهبية من أحد كبار موظفى البلاد. وفى سقارة يظهر الفرعون «ساحورع» تقديره لمفتش أطباء القصر «نى عنخ سخمت» بإهدائه بابا وهميا منقوشة عليه أجمل عبارات التبجيل. ويروى «متن» على جدران مقبرته كيف أرتقى من وظيفة متواضعه بالمخازن الى قمة الإدارة الحكومية ، ويكتب «نفر»: كنت واحداً ممن تهب عليه ريح الشمال ، وممن لم تمتنع الريح عن أنفه البتة ، كنت أتلقى الهدايا وقلبى سعيد ، كنت ابن أحد المحافظين ، شريف فى مدينته ، يشرف على حقول أمون ، امتع بنعمة الملك. كنت شخصا سرّت بهاروح الملك عندما ارتفعت الزوج الإلهية «أبوزى نفرتارى» نحو السماء (وهذا يشير إلى أنه عالج الملكة

الوالدة من آخر مرض لها) .. كنت كاتبا ماهراً ، طبيبا عالماً ، عارفا للوصفات المعقدة ، عالما بالجسم البشرى .. الخ.

ورواية «إيدو» تدعو الى الدهشة والتأمل. فقد وجد أثر له فى مقبرة الأمير «سابنى» بقبة الهواء فى أسوان ، فى حين أنه كان طبيب «بيبى الثانى» المقيم بمنف. ولكن دهشتنا تزول إذا تذكرنا إهتمام ملوك الأسرة السادسة بحكام الجنوب ، الذين كانوا حراسا لحدود مصر الجنوبية ، ورواد الصحارى ، وأمراء القوافل التى كانت تمد الملوك بالعاج والأبنوس والذهب من النوبة والجنوب ، ولذا فإنه من المرجح أن «إيدو» كان مرسلا من «بيبى» الى قبوة الهواء لمعالجة الأمير «سابنى».

ولكننا اذا بحثنا عن حقيقة التأريخ ، قد نجد واقعها فى أعمال الخيال التى تصف الحياة بحرية لا تتوافر فى النصوص الرسمية. روى هيرودوت أن أحد الفراعنة أراد عقاب النيل ، لأنه غمر فيضانه البلاد سنة من السنين ، فإنهال عليه بحربته فى غمار التيار ، فعاقبه إله النيل بالعمى ، ولم ينجح الأطباء فى علاجه. الى أن طلب اليه الاغتسال ببول إمرأة لم تخن قط زوجها. فاعتقد أنه سيجد العلاج عند زوجته ، ولكن بولها لم يفد ، فاستمر فى البحث عشر سنوات حتى وجد البول الشافى ، وعندئذ تزوج المرأة المنقذة وأمر بإحراق الأخرى. وروى هيرودوت كذلك — ولم يكنّ للمصريين حبا جما وكان متحيزا لمواطنيه الإغريق — روى أن دارا ملك الفرس ، أصيب بالتواء فى رسغه حين سقط من ظهر جواده ، وكان محاطا بأطباء من المصريين. فعندما فشل هؤلاء فى علاجه ، توجه إلى طبيب إغريقى شفاه ، بوسائل الطب الإغريقية. فأغدق له العطاء ، وحكم على الطبيب المصرى بـ «الخازوق» وكان سينفذ الحكم لولا توسط الطبيب الإغريقى.

وروى هيرودوت كذلك أن سبب غزو «قمبيز» لأرض مصر كانت مكيدة من طبيب مصرى خان بلاده للانتقام من فرعون «أمازيس» الذى أختاره من بين أطباء مصر ، وأبعده عن أسرته ، لإرساله الى البلاط الفارسى. فنصح هذا الطبيب قمبيز أن يطلب يد أبنة «أمازيس» لأنه قدر أن ملك الفرس لن يتخذها زوجة رسمية ، ولكنه يجعلها أمة ، وهذا ما يرضى غله. وقد أراد «أمازيس» تدارك ذل ابنته ، فأرسل أميرة أخرى. إلا أن «قمبيز» فى لحظة مودة ناداها بابنة أمازيس ، فكشف سرها. ونقم «قمبيز» على فرعون ، فهاجم مصر وضمها الى امبراطوريته.

ومن الأطباء الذين وصلت إلينا أخبارهم: «إيرى» الذى ورد أسمه فى مقبرة بجوار أهرام الجيزة ، ولقب بطبيب القصر ، مفتش أطباء القصر ، طبيب رمد القصر ،ومفسر السوائل الخفية فى النشنث (؟). ويوجد بمتحف القاهرة تمثال رائع لـ « نى عنخ رع » « الحياة ملك لرع » رئيس أطباء البلاط ، الذى يعلم أسرار الملك اليومية ، الكاهن لعدة آلهة وقاهر العقارب

وهناك لقب آخر يشير الى ممارسة السحر ، وهو «قاهر العقارب» الذى وصف به عنتى إم حت (شكل ١٣ السطر السابع الى اليسار) وغيره ، كبسامتك سنب ونى ــ عنخ ــ رع اللذين سبق ذكرهما. وهذا بلا شك لأن علاج العقارب وما اليها لا يفيد فيه الطب العادى ولا يستجيب الا للسحر.

ثم يمضى قرن ، فنرى طبيبا آخر للبلاط ، وهو «خوى» يحمل لقب «رئيس اطباء مصر العليا ومصر السفلى الصعيد والدلتا» ويجمع بين هذه الوظيفة ووظيفة رئيس كهنة هرم «تيتى» (٢٤٠٠ ق م) ويلقب نفسه بأسم «العالم بالفنون السرية» مما يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقرن الطب بالسحر.

وهناك «أوزاهورسنتت» الذى كلفه دارا الأول باعادة بناء مدرسة الطب التى كان قد هدمها قامبيز ، وآخرون عدة ...

والى جانب هؤلاء نشأت فئة الاخصائيين غير الأطباء ، وكانوا أقل منزلة ، وربما كانوا يعتبرون «صناعا» أو «مساعدين فنيين» ينفذون اشارات الأطباء (شكل ١٢).

وكان الاختصاص يزاول فى حدود ضيقة للغاية. فهذا متخصص فى الرمد ، وذاك لا يعالج الا الشرج ، ويطلق عليه اسم لا يخلو من البديع هو «راعى الشرج» وقد تصف هذه التسمية الموكل اليه تركيب الحقن الشرجية .. الخ. بل إنهم أمعنوا فى تضييق ميادين تخصصهم حتى بزوا فى ذلك بعض معاصرينا. وليس أدل على ذلك من أن بعضهم كانوا يدعون أنهم متخصصون فى الأمراض المجهولة ، وربما عبروا بهذا عن الأمراض الباطنية الخفية الأسباب. وقد دعا ضيق تخصص بعضهم إلى ترجيح أن هؤلاء الاخصائيين فى علاج مرض واحد ليسوا سوى صناع فى مهنة الطب.

وهناك أيضا ما يدل على وجود مساعدين أو ممرضين وأخصائيين فى الأربطة والتدليك. وكان يطلق عليهم اسم «اوت» وفى مقبرة عنخ ماحور صور تمثل خدما يدلكون القدمين ويعنون باليدين (شكل ١٤) وصورة أخرى فى مقبرة «بتاح حتب» تمثل العناية بالأظافر (شكل ١٥) وكان البعض من هؤلاء «الأوت» للأحياء ، والبعض الآخر للموتى (أى للتحنيط).

الباب الثامن

الطب الباطنى والعــلاج بالعقاقــير

هل لقدماء المصريين نظريات طبية؟ قلنا إن الطب الفرعونى حاول التحرر من شرنقة الطب الروحانى ، ليتحول الى علم تجريبى تعقلى ، فهل وضع المصريون نظريات فى الطب الروحانى؟.

ربما يبدو هذا السؤال غريبا على من اعتاد قراءة البرديات المصرية. فلقد كان قدماء المصريين فى كتاباتهم بعيدين عن النظريات التعقلية بقدر ما كان الأغريق مشغوفين بها. ويرجع هذا الى نزعتهم التجريبية التى نأت بهم من جهة عن التأمل المجرد الذى اتصف به الإغريق ، والتى منعتهم من جهة أخرى من الوقوع فى الروحانية التصوفية التى اتسم بها الأسيويون. وإن كانوا قد تعمقوا فى العبادة ، ونسجوا حول أساطير آلهتهم روايات لا نهاية لها. ولربما كانت تلك النزعة الواقعية التى تبدو جليا فى الصور التى رسموها لآلهتهم ــ إذ وصفوهم بكل مميزات بنى آدم ، فاضلة كانت أم مرذولة ــ هى السبب فى مجابهتهم المسائل بطريقة عملية ، الأمر الذى

مكنهم من تحقيق أكثر أحلامهم طموحا ، فشيدوا الأهرام ، ورووا الصحارى ، وحفروا القنوات بين النيل والبحار ، وقادوا جيوشهم الى حدود العالم المجهول.

ولذا كان من غير المجدى البحث فى مخطوطاتهم عن أبواب أفردت لنظريات منظمة دقيقة أو لشروح مفصلة ، على نقيض كتب الإغريق الطبية التى تزخر بالتأملات والاستنتاجات المنطقية الى درجة تكييف الملاحظات لتلائم نظرياتهم الفلسفية.

ومع ذلك فإنه ينبغي لنا أن نحتاط فى الاستنتاج من واقع البرديات المعروفة لأسباب عدة أهمها أنه لا يمكن النظر الى البرديات المعروفة على أنها المؤلفات التى كانت تدرس فى مدارس الطب وبيوت الحياة. حيث أنه من المرجح أن كثيراً من العلوم لم يدون وإنما كان ينتقل شفويا من الأستاذ الى تلميذه تحت ستار سميك من تلك السرية التى كانت تكتنف العلم فى ذلك الوقت.

والحقيقة اننا مع وجود هذا النقص فى كتاباتهم ، لا نعقل أن يكونوا قد عكفوا طوال أربعة آلاف سنة على تدوين مشاهداتهم ، دون أن يحاولوا تبويبها. وكل تبويب يسبقه تفسير ، وكل تفسير معناه نظرية.

ونحن نرى انه يمكن ــ بتحليل كتاباتهم ــ استخلاص هذا اللون ، واستنباط جوهر تفكيرهم فى المرض وأسبابه.

النظريات العامة للأمراض. لقد افترض قدماء المصريين أن لكل مرض سببا ، وأن الجسم يولد حيا صحيحا ، ولا يمرض أو يموت الا بفعل فاعل دخيل عليه. ولفظ «دخيل» استعملوه بمعناه الحرفى ، يقصدون به تسللا ماديا الى داخل الجسم.

وقد يكون هذا الدخيل ظاهراً للعين ــ كالجروح والحروق والسموم والافراط فى الأكل.. الخ. وفى هذه الحال يسهل عليهم معرفة علته والتخلص منه بالطرق الملائمة. أما إذا كان الدخيل خفيا ، ساروا وفق افتراضاتهم المستمدة من نظرتهم الى الحياة. هذا وإن استبدلنا الجراثيم بالأرواح والموتى ، لوجدنا هذه النظريات مطابقة لنظرياتنا الحالية فى الأمراض المعدية.

ومن الأسباب الخارجية ...

(١) الهــواء . كان الهواء أولى العلل التى افترضوها للأمراض. وقد ورد ذكره فى عبارات عدة بمعان مختلفة أتى فى كل منها بمعنى ، بحيث كان يحمل مدلولات شتى تشمل الريح والزفير والنفث (أى القوى التى تنبثق مع التنفس).

والمعنى الأول ــ أى الريح ــ نجده فى عبارة : «إبعاد ريح طاعون السنة» التى وردت على ظهر بردية أدوين سميث. وهذا يوحى بأنهم فطنوا الى أثر الهواء فى نشر الأوبئة وأنهم سبقوا ــ ولو فى تواضع ــ مؤلف أبقراط عن الأهوية.

والمعنى الثانى قريب من الأول ، وهو يوحى بوجود جوهر مرضى فى الهواء المحيط بنا. وهذا المعنى نجده فى العبارة الآتية التى وردت فى كتاب الجروح ببردية سميث «إن لحم المريض التقط هواء». وإذا رجعنا الى لغتنا الشعبية وجدنا أننا نقول إن فلانا أصابته «لفحة هواء» أو «استهوى» أو «أخذ هواء» ، ونحجب الجروح «لئلا تشم الهواء» ونعتقد أن البطيخ إذا ما شم الهواء فسد .. الخ.

أما المعنى الثالث فهو أقل واقعية من المعنيين الأولين ، بل انه مستمد من الطب الروحانى. ونجده فى الوصفات التى ترمى الى: «إبعاد ريح

شخص حى أو ميت أو ميتة أو عدو أو عدوة أو إله أو إلهة». ولا مراء فى أن هذا تعبير روحانى لا يؤدى معنى العدوى بجراثيم النفس. فإن النفس ـــ فى نظر الشعب ـــ حامل للروح. وفقدانه هو الموت. وكان أول طقس من طقوس التحنيط وإعادة الحياة الى الميت فى ديانة المصريين ، هو طقس سمىٌّ «فتح الفم». والسحر يؤمن بقدرة النفث على الحاق الضر . فقد جاء فى كلام الله: «قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق اذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد» (سورة الفلق) وإننا ما نزال نقول عمن يقع ضحية عمل سحرى إنه «اتنفس».

ولكن لا شك فى أن تلك التعبيرات ـــ بالرغم من أنها مؤسسة على السحر ـــ تحتوى على عناصر تجريبية ربما أتت نتيجة لملاحظات واقعية. فإن الريح تحمل الأمراض لسخونتها أو برودتها ، أو بسبب الجراثيم والحشرات التى قد تحملها. كما أن نفس المرضى ينقل الأمراض المعدية. وأن تعرض الجروح أو الأغذية للهواء يؤدى الى تلوثها بالجراثيم.

٢ ـــ **عيوب التغذية.** والمجموعة الثانية من الأسباب التى ذكروها ترجع الى عيوب التغذية. أى الى عدم صلاحيتها ، أو نقصها ، أو الإفراط فيها. ومن الأمثلة التى ذكروها عن الشطط فى التغذية أكل الجميز غير الناضج ، واللحم المتعفن ، واللحم الذى زاد طهوه ، وشرب الجعة الساخنة ، والشرب مع أكل نوع معين من السمك.

أما احتساء الخمر فله أوصاف تصويرية جميلة: «إنك تجرى من حارة الى أخرى ورائحة الجعة تفوح من فيك ، إن الجعة تسيطر على الروح فيصبح المرء كالمجداف المكسور لا يمتثل الى أمر ، كمصلٍّ من دون إله ، وكبيت دون خبز».

وفى وصف تأثير الخمر قالت بردية إنسنجر: «من ملأ نفسه بالنبيذ أقعده ألم الشعر فى مضجعه». ومن الطريف أن الصداع الناجم عن احتساء الخمر يوصف أيضا بالفرنسية بألم فى الشعر.

وإليك وصف واقعى لحالة السكر :«سقط إكليلك من رأسك حول رقبتك ، إنك تزحف على بطنك ، ثم تقف ، وتعاود الوقوع على بطنك. إنك ملطخ بالقاذورات». ويقابل هذا الوصف رسم فى إحدى المقابر يمثل سيدة وقد ارتدت ثياب الحفلات ، ووضعت على رأسها مخروطا من العطر — كعادة المصريين فى المآدب والأعياد — وهى تتخلص مما أكلت وشربت.

ولا شك أن **الأفراط فى الأكل** والشرب كان شائعا بين الأثرياء من المصريين ، فقد وردت نصيحة فى بردية إيبرز بوجوب اجتناب الأكل قبل عودة الشهية. وهى تذكرنا بالحديث الكريم : «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع». ومما ورد فى الأثر «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه».

ثم اننا نرى موائدهم مرسومة أو منقوشة على جدران مقابرهم وهى تزخر بطيبات الحياة ، وكانت بينهم طائفة من أولاد الحظ أو هواة الاستمتاع ، الذين لا يحفلون إلا بالملذات ، والذين قال عنهم هيرودوت أنهم يمررون عقب المآدب دمية من الخشب على صورة جثة ويقولون للمدعوين «كلوا وامرحوا فإنكم سوف تشبهون هذه بعد وفاتكم».

وكانت البدانة شائعة بين أثريائهم انتشارها بين أثرياء اليوم ، وإن كانوا قد توخوا ابراز الرشاقة المصطنعة فيما نقشوا من رسوم. ولنذكر فى هذا الصدد المثلين التاليين:

أولهما : رسم فى احدى المقابر بسقارة صور فيه صاحب المقبرة بدينا

مثقلا بالشحم على واجهة ، ونحيفا يافعا على واجهة أخرى ، كأنه يقول: هنا صاحب المقبرة بدينا مقلا بالشحم على واجهة ، ونحيفا يافعا على واجهة اخرى، كأنه يقول: هنا صاحب المقبرة كما كان ، وهناك كما يود أن يكون في حياته المقبلة (شكل ١٦).

وثانيهما : رئيس البحارة على نقش مريركا ، وهو مصور على شكل رجل بدين بين بحارة مفتولى الأجسام ، منهمكين فى تقديم الطعام اليه.

ومما يؤكد أنهم كانوا يعزون علة كثير من الأمراض الى الإفراط فى الأكل ، أو الى تعفن الأطعمة فى الأمعاء ، أن هيرودوت ومن بعده ديودور الصقلى رويا ، ان المصريين اعتادوا تناول المسهلات والمقيئات ثلاثة أيام متوالية فى كل شهر. كما أن ذكر الملينات والحقن الشرجية واللبوسات يتكرر فى أغلب وصفاتهم. ثم أن بردية شستربيتى رقم ٦ بأكملها ، وأجزاء كبيرة من برديتى هرست وإيبرز ، لم تتناول سوى البواسير وأمراض الشرج. بل أن أحد مشاهير الأطباء حمل ضمن ألقابه لقب «راعى شرج فرعون». وقد ألهوا الحقن الشرجية. فقد روى بلينوس أن الإله تحوت هو مخترعها. إذ أن طير ابيس الذى يتجسم فيه هذا الإله يؤم كل يوم الشاطىء ليملأ فاه بالماء الذى يحقن به شرجه بواسطة منقاره الطويل بغية غسل امعائه.

ترى هل نعجب لهذه النظرية القديمة ، نحن الذين ننسب أمراضا عدة الى «عفونة» أو «وساخة فى المعدة أو المصارين». ونقول أن «المعدة بيت الداء». كنا نحتم الى عهد قريب تناول شربة زيت الخروع كبداية لكل أنواع العلاج ، حتى اذا بدت العلة بعيدة عن الأمعاء. وهنا يجدر بالذكر أن بردية إيبرز قد فردت فصلا كاملا للخروع ، فضلا عن أنه كان يذكر فى العديد من الوصفات.

هل نستغرب هذا وقد أسس الاستاذ الانجليزى دائع الصيت السير «أربثوت لين» نظريته المعروفة على تعليل المرض باحتجاز الغائط فى الأمعاء ، الأمر الذى يترتب عليه ضرورة تسليك مجراها بالجراحة ، وقطع الالتصاقات التى تعوقها .. الخ من الاجراءات التى تكفل مرور الفضلات للتخلص منها. وقد غصت الجرائد بالاعلانات عن الملينات التى تنظف الجوف مما يرسف فيه من فضلات .. وما تزال بلاد المياه المعدنية مثل فيشى وبلومبيير وكارلسباد ، تكتظ بالمرضى الذين يترددون عليها لشرب المياه المعدنية الملينة ، ولغسيل الأمعاء الغليظة ، بعشرات اللترات من مياهها.

٣ ــ **الغائط.** ونتيجة لاهتمامهم بمحتويات الأمعاء كانوا يعدون الغائط سببا مهما من مسببات الأمراض. وكان فى نظرهم يسبب المرض ، إما بانتقاله الى غير مقره ، وإما بتعفنه.

ويرى جرابو أنهم كانوا يؤمنون بمبدأ يعدونه من المبادئ الأساسية لعلم الأمراض ، وهو ان المواد او السوائل التى تعد طبيعية فى مقرها ، تصبح سامة اذا انتقلت الى أنسجة أخرى. وهناك نصوص صريحة تؤكد أن المرض نتيجة لانتقال الغائط من الأمعاء عن طريق الأوعية وهذا ما سنعرض له فيما بعد.

ولكن فكرة الغائط أوسع من أن تنحصر فى المواد البرازية فحسب. فان الغائط عند الاغريق كان ينتج عن هضم الأغذية ، ولم يكن التعفن فى نظرهم إلا خطوة فى تلك العملية. فإذا ما اجتاز حدوده الطبيعية ، تحولت مادة الغائط الى مواد غير طبيعية قد تسبب المرض ، كالديدان. أو تسرى فى الأوعية ، فتتسرب عن طريقها الى الأنسجة ، وترسب فيها ، فتتحول الى خراج أو ورم أو قرحة.

وهناك لفظة حار اللغويون فى تحديد معناها ، وإن اتفقوا على أنها تؤدى إجمالا معنى المادة المرضية أو الخلط المرضى ، وهى لفظة «أوخدو».

وهذا «الأوخدو» كان مركزه حسب نصوص البرديات فى الأمعاء ، كما كان يصح أن يسرى فى الجسم فيسبب فيه شتى الأمراض فى جميع اجزائه. فتظهر ظواهره فى الأوعية والرأس والفم والأسنان وتجويف الصدر والقلب والبطن والشرج والأورام والقروح والخراريج. أما نشأة «الأوخدو» فإن جزءاً كبيراً من مفكرى قدماء المصريين كانوا ينسبونه الى التعفن المعوى كما أسلفنا.

وهذا «**الأوخدو**» يرتبط ارتباطا وثيقا بمرض سموه «عاع». وقد حار المؤرخون فى تحديد هذا المرض ، وقال بعضهم إنه الانكلستوما ، وقال البعض الآخر إنه البلهارسيا. ولنا فيه رأى خاص.

فقذ ذكر مرض **العاع** ، فى أربع برديات: ٢٨ مرة فى بردية إيبرز ، و١٢ مرة فى بردية برلين ، و٩ مرات فى بردية هرست ، ومرة فى بردية لندن. ويستخلص من الأوصاف الأكلينيكية التى ذكرت بصدده أنه كان مصحوبا بانتفاخ معوى ، وبآلام فى البطن ، ودق ووخز و«هروب» فى القلب. وقد أضاف «إبل» الى تلك الظواهر الافرازات الدموية التى قال عنها إنها من البول ، بينما قال آخرون إنها من الغائط. وأكد أن العاع هو البلهارسيا. وهذا القول بناه على اعتبارين :

الأول أن سبب العاع دودة «**حررت**». وهذا النص ورد فى وصفة واحدة من الوصفات الخمسين التى تناولت العاع ، وهى وصفة إيبرز رقم ٦٢ التى تنتهى بالعبارة الآتيه: «يتناولها الذين توجد فى بطنهم دودة «حررت». إن العاع هو العلة». ومعنى هذا جلى: إن العاع هو المحرك الأول لظهور الديدان ، وليس نتيجة وجودها. وهذا النص كما أسلفنا هو المرجع الوحيد

عن صلة العاع بالديدان.

والثانى اصطحاب العاع بالإفرازات الدموية. حيث ...

«إبل» من بردية لندن ، حيث جاءت «تعزيمة» ...

المقصود بهما محاربة الأنزفة ، فاستنتج أن المقصود ...

وإن لم يجىء بها ذكر هذا العارض. ثم ذهب ...

المزعوم لا بد وأن يكون منبعه البول ، إذ أن ...

من الشرج ، وتلحق بها ثالثة لنزف من ...

المزدوج — وأقل وصف له هو أنه جرىء ...

أولاهما الحاق كلمة عاع بمخصص هو الرم ...

.(١٧

وثانيهما وجوب تلاوة التعزيمة المذكورة على ...

تعطى بعدئذ لقط ليأكلها. وهنا علينا أن نشير ...

الكتابة الهيروغليفية كان يرمز الى أى عنصر سام أو شرير.

ومع ذلك ، فهناك وصفات كثيرة فى البرديات ...

الافرازات الدموية فى البول. ولم ترد بها لفظة عاع ...

ولنا أن نشك أن يكون المصريون قد فطنوا الى ...

الصغيرة التى يصيبها التحلل خلال أربعة وعشرين ...

وقد تساءل جرابو: «كيف كان المصريون يقد... ...

الدودة المتناهية الصغر ، وما الذى كان يوحى اليهم بإسناد ...

تلك الدودة»..؟

إن النصوص تنسب العاع إلى الأرواح الشريرة التى ...

اتهامها: إله أو ميت أو ميتة. فإنها كثيراً ما تتحدث عن ...

البطن» أو توصى بأدوية لإبعاد «سحر إله وعاع إله» ...

ميت». كأن العاع هو المؤثر الكامن الذى يعمل بطريقة خفية ، وليس هو السبب المباشر. أى على قول جرابو: «إنه (أى العاع) ليس بمرض بقدر كونه عنصر مرض وضعه الشياطين فى البطن».

أما عن صلة العاع «بالأوخدو» فتقول النصوص: «لقتل الأوخدو وإبعاد العاع» أو «إبعاد العاع وقتل الأوخدو» ... الأمر الذى يشير أيضا الى أن العاع الذى يجب استبعاده ، لم يكن العامل المباشر للمرض ، وإنما كان المحرك الأصلى الذى يسبب المرض عن طريق الأوخدو ، هذا الأوخدو الذى كان يجب قتله للابراء.

وإن صح أن العاع سببه الديدان ، وإن صح أيضا أن الأفرازات الدموية تصحب هذا المرض ، فلدينا تفسير لذلك: إن أطباء الغرب يرون فى أمراض البلاد الحارة أمراضا طفيلية ، فلا غرابة إذن أن يفكروا فى العاع على أنه إما الانكلستوما وإما البلهارسيا .. ولكننا فى مصر قلما نرى تلك الأمراض منفردة ، بل نواجه فى كل يوم ، وخاصة فى الأقسام المختصة ، كشكولا من تلك الاصابات. وقد أكدت أبحاث زميلى الأستاذ الدكتور حسين فؤاد نجاتى أن نسبة المصابين بأكثر من طفيلية واحدة بين جملة المصابين تربو فى الدلتا على ٦٠٪. ولذا فإننا لا نستغرب أن يكون ما أطلقوا عليه إسم العاع ليس إلا مجموعة ظواهر من عدة أمراض ، مثل الانكلستوما والبلهارسيا والاسكاريس والديدان الأخرى ، تتحالف عادة فى جسم المريض الواحد. وربما شاهد المصريون إذن ـــ فى الحالات المصابة بالبلهارسيا الخبيثة فى الأوردة ، ديدانا مرئية مثل الأسكاريس أو الأنكلستوما ، ولم يميزوا بين الاثنين. فعرّفوا العاع بأنه عنصر خارجى يدخل الجسم فيتسبب عنه «الأوخدو» الذى قد يظهر فى البراز على شكل ديدان أو فى الجسم على شكل مرض.

وهناك تفسير آخر لربط المصريين العاع بالديدان ــ إذا قبلنا جدلا أن لعاع هو البول الدموى ــ وهو احتمال ملاحظتهم جلطا دموية على شكل ديدان مثل التى تظهر فى البول فى حالات البلهارسيا ، وعد تلك الجلط ديدانا. ومما يدعم هذه الفكرة انهم فى بردية سميث نصحوا بتنظيف داخل الأنف من الديدان الموجودة به فى حالات كسور عظمته.

٤ ــ **الديــدان.** وللديدان تاريخ طويل فى النظرة الشعبية للأمراض ، ربما يكون قد نشأ من مشاهدة الدود فى كل شيء ــ عضويا كان أو غير عضوى ــ يصيبه التحلل والتعفن. فان الخشب يصاب بالسوس ، والجروح يدخلها الدود ، والجثث المنحلة تأكلها الديدان. وهذه الملاحظات كانت تحيى عندما يعود اليها الـ «با» أى الروح .. ومن ثم نفهم ضرورة الاحتفاظ بكيانها وبشكلها الخارجى ، حتى يتعرف عليها الـ «با» عند عودته. ولذا فإن تحلل المومياء كان ينظر إليه على أنه أبشع الأمراض ، لأنه يؤدى الى وفاة شر من الأولى ، من حيث إنها كانت ــ فى هذه الحال ــ نهائية ولا سبيل للروح بعدها الى العودة الى الجسم ، فتظل الى الأبد حائرة دون مأوى. وكانت الديدان سبب هذا المرض أو التحلل. ومهما كان أصل التفكير فى نسبة المرض الى الديدان ، فإننا نراه شائعا بين كل الشعوب ، ولا سيما بين المصريين. فقد جاء فى بردية أنسطاس أن تسوس الأسنان سببه الديدان ، ونحن ما نزال نسمى تآكل الاسنان «السوس» كما نطلق هذا الاسم على التهابات العظام المزمنة ، درنية كانت أو غير درنية. وجاءت وصفة فى بردية إيبرز نقلتها أيضا بردية هرست ، يقصد بها علاج الديدان الموجودة فى الأصابع. الأمر الذى يجعلنا نتساءل: أكان المقصود الداحس ، أم الشرانق التى تصيب أحيانا الجروح المتقيحة.

ومن الطريف فى شأن الداحس أنه يسمى فى المانيا الشرقية Nagelwurm

دودة الظفر. وأن لفظ داحس مشتق من الأصل الثلاثى نفسه الذى اشتق منه لفظ آخر هو الدحاس ، وهو نوع إسم من الديدان تعيش تحت الأرض.

كذلك آمن الأشوريون بنسبة المرض الى الديدان. فقد ورد النص الآتى فى تسريذة أشورية:

«بعد ما خلق أنو السماء ، خلقت السماء الأرض ، وخلقت الأرض الأنهر ، والأنهر القنوات ، والقنوات البركة ، والبركة الدودة ، ومثلت الدودة أمام «شاماش» وأمام «أيا» باكية سائلة :

«أى غذاء عينته لى لآكله ، ما الذى سأفتته ..؟

«فأجاب الإله سأعطيك تينا جافا ومشمشا.

«وما التين والمشمش بالنسبة لى..؟ ضعنى بين الأسنان. دعنى أعشش فى اللثة فأمتص دم الانسان ، وأمضغ نخاع اللثة. هكذا سأمسك مزلاج الباب».

وكانت تلك التعزيمة تقرأ ثلاث مرات ، بينما كانت تخلط الجعة بزيت ونبات خاص ، ثم يوضع هذا المزيج على اللثة.

وهناك تعويذة غريبة على ظهر بردية إدوين سميث ، وهو الجزء السحرى منها ، قد تشير الى نسبة المرض الى حشرات تدخل الجسم عن طريق الفم:

«تعويذة لرجل ابتلع ذبابة: إن فاه نقى مثل فم العجل الوليد لتوه ، الذى لم يدخل جسمه طعام ، إن الحشرة التى ابتلعها ستخرج منه حية ، وستقع منه كالفضلة دون أن تؤذى بطنه».

والظاهر أن العجل الوليد الذى لم يأكل بعد ، كان يعتبر فى غاية الطهارة. فقد ورد التشبيه ذاته فى نصوص الأهرام: «إن أوناس طاهر كالعجل الوليد الذى لم يرضع من أمه».

٥ — **الاختلافات الكمية فى الدم.** لم تقتصر الأسباب على وجود مواد أو عناصر مرضية بالدم ، إذ أنهم قالوا أيضا إن المرض يحدث عن تغيير لا من حيث الكيف ، ولكن كذلك من حيث الكم. وكانوا يعرفون النبض ، ويعبرون عنه بقولهم إن «القلب يتكلم» عن طريق «المتو» أى الأوعية فى كل عضو. وتشير نصوص عديدة الى أن سبب المرض هو أن «القلب لا يتكلم فى الأعضاء» أى أن النبض اختفى منها. ولعلهم بهذا عبروا عما يحدث عندما تنسد الشرايين بجلطة أو بضيق أو بتقلص. وهذا يقارن ما قاله أبقراط فى الصرع: إن البلغم يعترض الهواء فى الأوعية ، فلا يصل هذا الأخير الى المخ.

وكانت كذلك زيادة الدم فى الأوعية والرئتين أو القلب فى نظرهم تسبب المرض. أفلا يذكرنا هذا بنظرية أغريقية أخرى «البليثورا» هى التى ترجمها العرب بالامتلاء؟.

٦ — **المسببات غير المرئية.** تلك هى إذن المسببات المرئية للأمراض غير الجراحية التى وردت فى المتن ؛ وهى الهواء وخلل التغذية والغائط والديدان. أما اذا كانت المسببات غير ظاهرة ، فكان يتحتم على المصريين نسبتها الى عناصر خفية طبقا لنظرتهم المنطقية للمرض. وكان طبيعيا فى ذلك العهد من التاريخ البشرى أن تكون بعض تلك العناصر روحانية ، كغضب الآلهة ، أو انتقام الموتى ، أو فعل الأعداء.

ولم تكن نسبة الأمراض الى تلك الأرواح تبدو غريبة على الطبيب. ولم تكن من تلك الأمور التى ينفرد بها الساحر. فقد كانت الأمراض الخارجية والأمراض الروحانية مجرد موضوعين من موضوعات علم الأمراض ، شأنهما فى ذلك شأن الالتهابات والأورام ، أو الأمراض العضوية والأمراض النفسية فى الطب الحديث. فكان الطبيب إذا ما اقتنع بأن مرضا ما ليس من

الأمراض العضوية ، أحال المريض على زميله الساحر كما يحيل الباطنى اليوم مريضا على أخصائى الأمراض النفسية ، وقد وردت أمثلة عديدة من هذا التمييز. مثل رواية أميرة بختان ، التى أرسل إليها رمسيس عالما من علماء مصر لفحصها. فقال العالم: «إنى لا أقدر على هذا المرض ، استنجدوا بمن هو أقوى منى ، الإله خونسو ، إنه أقوى منى». وقد فعلوا ، فشفيت الأميرة. فلا يدهشنا إذن أن نرى بعض الأطباء وقد حملوا ألقابا تجمع بين الطب والسحر ، مثل: نى عنخ رع ، الذى كان مفتش الأطباء وكاهن الإلهة سخمت ورئيس السحرة.

ومما يشير أيضا الى هذا التمييز ، تباين نسبة التعازيم فى البرديات المختلفة. فان كتاب الجروح لا يحوى إلا تعزيمة واحدة من بين ٤٨ وصفة. وبردية إيبرز لم يجئ بها إلا ١٢ تعزيمة من بين ٨٧٧ وصفة. بينما بردية برلين تزخر بها. وبردية لندن أكثر شبها بكتاب رقى منها بمؤلف طبى. ويرجع هذا التباين — فى الغالب — الى تباين نسبها فى المتن المتناثرة التى وصلت الى ناسخى تلك المصنفات.

ونجد أيضا ما يؤكد هذا الرأى فيما نراه من اختلاف بصدد علاج من أصيب بعضة من إنسان أو أسد أو فرس البحر أو تمساح من جهة ، ومن أصيب بلدغة ثعبان أو عقرب من ناحية أخرى. فإن الأولى عولجت فى البرديات الطبية بالعقاقير. والثانية لم تتناولها إلا البرديات والنصوص السحرية ، مثل حجرة مترنخ ، أو بردية ليدن ، التى لم تعالجها الا بالرقى والتوسلات.

ومن الأمثلة الأخرى لهذا التمييز ، الطريقة التى بها وزعت وصفات علاج الأذنين فى بردية برلين ، حيث وردت ست وصفات فى جزئين متباعدين منها: أربع فى جزء أوصت باستعمال الأدوية الطبية ، واثنتان فى جزء آخر

لعلاج ظواهر نفسية مرتبطة بالأذنين عن طريق مواد مثل روث التمساح ، وذنب العقرب ، هي أقرب الى السحر منها الى الطب.

وكان للأرواح المؤذية كبير يستقبلها في الجسم ويوجهها ، كانوا يسمونه «الواشي» أو «النمام». ومن الطريف أن لفظي Devil الانجليزية و Diable الفرنسية ، ومعناهما «الشيطان» مشتقان من Diavolos الإغريقية ومعناها أيضا «الواشي» أو «النمام». وكانت تلك الأرواح تتسلل الى المنازل وتختبىء في الأركان. الأمر الذي كان يستوجب إحكام إغلاق النوافذ والأبواب ووضع التعاويذ عليها لمنع هذا التسلل.

وفضلا عن الأرواح الشريرة فإن الآلهة الخيرة كانت ترسل الأمراض أحيانا عقابا على العصيان. وهكذا نجد أن أبشع ورم وصفوه كان ورم الإله خونسو ، الذى كثيرا ما كان يوصف بالإله الشافي. وفي هذه الحال كان يتعين — في التماس الشفاء — اللجوء الى الإله نفسه الذى سبب المرض لاسترضائه.

٧ — **الأسباب النفسية**. ثم إن المصريين لم يهملوا الأسباب النفسية. فقد جاء وصف **الحزن والحنين الى الوطن والحب** في قصائد هي أبلغ ما تكون شاعرية. لنصغ الى ما قيل عن مرض «سانتي خامويس»: «تدثر بثيابه واضطجع ، وهو لا يدرى له مستقراً. فوضعت زوجته يدها تحت ثيابه وقالت: يا أخي ليس بك حمى ، وأعضاؤك مرنة ، إنه حزن قلبك».

ولندع المغترب يصف تشوقه الى العودة الى دياره: «ألا ترى الطيور المهاجرة تعود أدراجها الى مصر..؟. الى متى سأظل نائيا عنها..؟». وهاكم وصفا آخر: «ليرض عني بتاح ، فيعود بي الى منف .. ضعفت عيناى .. ثقلت أذناى ... وصمت صوتي».

وهناك صورة قاتمة لليأس من الحياة: «إن الموت أمامى كالصحة للعليل ... كرائحة النيلوفر ... كالحنين الى دارى بعد الأيام التى قضيتها فى المعتقل».

أما المحبون فانهم يسخرون من الطب والأطباء: «إن قدوم المحبوبة أنجع من الدواء ، وأجدى من الموسوعات الطبية». أو: «سأعتكف بالدار ، وسوف يدخل على الجيران للزيارة ، ومعهم من أحبها ، وسيزرى سحرها بنطس الأطباء لأنها هى التى تعرف دائى».

الا أنهم لم يكتفوا بتفسير الأمراض العصبية بالعوامل النفسية أو الروحانية ، فقد جاء فى بردية كاهون وصف ظواهر عصبية من تلك التى ننسبها الى الهستريا. نسبوها هم الى اضطرابات الرحم ، او انتقاله من موضعه. نجد هنا أيضا ما يذكرنا بالإغريق ، إذ أن كلمة هستريا مشتقة من «هستر» وهو الإسم الإغريقى للرحم.

سبيل المرض فى الجسم. والآن وقد عرضنا لمسببات الأمراض ، يجدر بنا أن نتطرق الى السبيل الذى كانت تلك المسببات تطرقه داخل الجسم المريض ، والذى يمكن تقسيمه الى ثلاث مراحل: (١) الدخول اليه. (٢) الانتشار فيه. (٣) الخروج منه فى حالة الابراء.

كان دخولها حسب نصوص عدة يتم عن طريق الفتحات الطبيعية الموجودة فى الجسم: كالفم والأنف والأذن ، أو عن طريق أفواه افترضوا وجودها فى الأوعية ، تستقبل فيها الأمراض أو تطردها عنها. وقالوا إن انتشارها ينحقق عن طريق الأوعية ، كما أن التخلص منها يتم كذلك ، إما عن طريق بعض الفتحات الطبيعية للجسم كالشرج او الإحليل ، وإما عن طريق فتحات الأوعية المزعومة. غير أن أغلب العبارات التى تصف الدخول أو الخروج عن طريق تلك الأوعية ، وردت فى برديات سحرية ، وإذن

فيمكن الظن بأنها كانت تؤخذ بمعناها المجازى فقط.

المتـو ، ونحن فى استعمالنا لفظ «الأوعية» نترجم حرفيا اللفظ الذى ترجم به الغربيون كلمة «متو». غير أن تلك الكلمة المصرية أطلقت على عناصر تشريحية مختلفة ، تشمل الأوعية والقنوات والأعصاب والأوتار وما اليها فى الطول والرفع والصلابة. كما يطلق الشعب اليوم كلمة «عرق» على الأعصاب والأوتار وغيرها من العناصر المتشابهة فى شكلها وإن اختلفت فى طبيعتها ووظيفتها ، وكما كان جاريا فى أوربا حتى القرون الوسطى. ولذا قال المؤرخون إن المصريين لم يميزوا بعضها عن البعض الآخر. وأخذوا عليهم أن «كتاب الأوعية» الوارد فى برديات إيبرز وبرلين وإدوين سميث ذكر فى مكان ما أن عدد المتو ٢٢ ، وقال فى مكان آخر إن عددها ٤٦. واستدلوا بذلك على خلط عجيب فى معلوماتهم التشريحية. إلا أن التحليل اللغوى لهذا الكتاب أثبت أنه مكون من مؤلفين مختلفين. وإن الخلط انما حدث عن نسخ الناسخ الذى وصلت اليه من الكتابين صحائف متناثرة غير مرقمة ، فنقلها تباعا ، وفق الترتيب الذى وردت به اليه.

أما هذا الاختلاف فى العدد ، فمرده الى أن أول كتاب — وهو الذى ذكر ٢٢ «متو» — قد قصر على الوصف التشريحى. بينما أن الآخر قد احتوى تأملات نظرية فى وظائف الأعضاء ، فذكر كل ما يعرفه من الأوتار والأعصاب والشرايين والأوردة والقنوات. ولعل أقوى برهان على ذلك أنه يقول إن لكل من الكبد والمثانة أربعة «متو» تنقل الدم والغائط. وهذا خطأ اذا قصدنا بالمتو الشرايين فحسب. ولكن المصرى لم يعرف شكل هذين العضوين إلا بعد نزعهما من الجثة. فرأى أربع قنوات متصلة بالمثانة هى الشريانان والحالبان. أما قوله إن المتو يحمل الغائط ، فقد يرجع الى أن قناة الصفراء تحمل الصفراء ، التى سرعان ما تتعفن بعد الوفاة ، والتى تتصل

بالإثنى عشر الملىء بفضلات الطعام.

نظروا إذن الى المتو على أنه شبكة مواصلات ورى واسعة ، تتخلل الجسم ، فتوزع فيه الدم والماء والهواء والافرازات المختلفة ، كالدموع والمنى ، وتنقل الغائط والأمراض. ولم يقصروا تلك النظرة على الأمراض المادية ، بل ظنوا أن الأمراض الروحانية التى تسببها الآلهة والأعداء والموتى والأرواح الشريرة ، تنتشر أيضا عن طريق شبكتها ، كأنهم أضفوا على تلك العوامل المجردة صفة مادية واقعية ، ورأوها تنتقل من جهة الى جهة ، ومن عضو الى آخر ، فتسبب الخراريج والأورام والأمراض العامة ، ويتحتم التخلص منها بالمفرغات كالشرب والمقيئات.

العناصر المرضية السارية فى الجسم. وكانت تلك العناصر السارية فى الجسم والمسببة للمرض فى نظرهم متعددة ، ناقشنا أحدها وهو «الأوخدو». ولنعرض الآن للسبب الثانى ، ذلك الذى اطلقوا عليه كلمة «ستي» التى ترجمها جرابو بالمخاط ، والتى رأى ابل أنها تقابل لفظة أو فكرة ال Phlegm اليونانية التى ترجمها العرب بالبلغم. وهو أحد الأخلاط الأربعة فى نظرية الأخلاط اليونانية الأصل التى سادت الفكر الطبى حتى القرن التاسع عشر.

ولفظ «ستيت» أطلقوه على مادة سائلة تجرى فى الجسم ، وقد يصيبها التعفن. فإذا وصلت الى عضو أحدثت فيه المرض. وقد تتحول فى الأمعاء الى ديدان. أما الأمراض التى ذكرت ضمن ما تحدثها من خلل ، فهى تشابه الأمراض التى كانت تحدث نتيجة للبلغم فى نظر الأغريق. على أن الكلمة ذاتها استعملت أيضا بمعنى الروماتزم ، ولذا يعتقد ابل أنها كانت تطلق ايضا على كل معانى لفظة «روما» اليونانية ، اذ أن المصريين ، فى رأى الكاتب نفسه ، كانوا لا يفرقون بين الخلط المرضى والمرض ذاته.

أما العنصر الثالث فهو ما سموه «رووت» الذى يقابل فكرة خلط آخر من الأخلاط الأربعة ، هو المرارة.

الأبــــراء. كانت تلك المواد المرضية تسرى فى الجسم ، وتسبب المرض الذى كان ينتهى إما بالوفاة وإما بالإبراء. وكان الإبراء يصورونه على صورة خروج المرض من الجسم خروجا فعليا. إذ أن المصريين كانوا يتخيلون سير المرض ــ كما أسلفنا ــ على شكل مادى ، حتى ولو كان روحانيا. فكان المرض يغادر الجسم عن طريق إحدى الفضلات ، أو الإفرازات ، أى الغائط والبول والقىء والعرق والمخاط. ولا شك فى أن تلك الصورة لخروج المرض تشبه تماما التفريغات البحرانية التى وصفها أبقراط والعرب من بعده.

علاقة الطب المصرى بنظرية الأخلاط. إن هذه الآراء بانتشار الأمراض ، والتخلص منها عن طريق الإفرازات والفضلات ، تدعونا الى التساؤل: هل يجب علينا أن ننسب الى المصريين نظرية الأخلاط التى طالما نسبت الى الاغريق..؟

قال الاغريق إن الجسم مكون من أربعة أخلاط ، هى الدم والبلغم والصفراء والسوداء. وقالوا إن توازنها أساس الصحة ، وإن طغيان إحداها على الأخرى أساس المرض. وإن طبائع الانسان بالمثل أربع ، تبعا لسيطرة أحد الأخلاط على الآخر. فوصفوا المزاج الدموى الذى يغلب فيه الدم ، والصفراوى والسوداوى والبلغمى. وقالوا أيضا إن المرض يحدث بسبب غلبة أحد الأخلاط. وإن علاجه يتم بالتخلص من الخلط الزائد لإعادة التوازن. كما قالوا إن الخلط الزائد يغادر الجسم فى الغائط أو البول أو العرق أو الخراج عند البرء من المرض ، فهل فيما رأيناه ما يبرر اسناد تلك الآراء الى المصريين..؟

هنا يجب أن نلاحظ أن نظرية الأخلاط الأربعة لم تكن وليدة الملاحظة والاختبار. بل أتت على العكس نتيجة لتأملات الفيلسوف أنباد قليس المجردة ، التى بنت الكون على أربعة عناصر هى: الأرض والهواء والنار والماء ، ولنظريات فيثاغورس الخاصة بخواص رقم ٤ الذى عده رقما كاملا. إلا أن فيثاغورس قد تتلمذ مدة طويلة على كهنة المعابد المصرية ، وأن المصريين وصفوا فى كتبهم السرية أركان الكون الأربعة ، وإن كانت تلك النصوص ترجع إلى حقبة متأخرة من تاريخهم.

ولكننا لو ذهبنا حتى الى حسبان الماء والهواء والدم والمواد الأخرى التى قالوا إن المتو تنقلها مساوية للأخلاط ، وحتى اذا أخذنا بأن ألفاظ «أوخدو» و «ستيت» وما اليها تقابل الأخلاط المرضية ، فما أكبر الفرق بين تلك النظريات وبين نظرية الأغريق. إذ أن الأخلاط — فى نظر أبقراط وغيره — هى مقومات الجسم الطبيعية التى تقوم عليها الصحة إذا ما وجدت بنسبها الطبيعية بيد أن الأوخدو والستيت.. الخ. تبدو عوامل مرضية بحتة ، ولم يرد أبدا ما يفيد بأنها من أركان الجسم الصحيح.

ولذا فإن صح القول جدلا ، بأن نظرية الأخلاط كما وردت فى كتابات الإغريق ، أسست على ملاحظات واقعية تناولت العرق ، أو الاسهال البحرانى ، أو تأثير اختلالات الدورة الدموية فى الجسم ، وعلى تأملات بنيت عليها ، فإنها مع ذلك لم تزدهر ، وتأخذ شكلها الأخير ، إلا بعد تطور طويل على ضوء النظريات الحسابية والكونية التى ابتدعها انبادقليس والقمايون وفيثاغورس وغيرهم من الفلاسفة الإغريق.

التشـــريح. إن معلومات المصريين القدماء عن التشريح ، بالرغم من خيال بعض المؤرخين الذين بالغوا فى ذكرها .. لم تعد فى الواقع ما يتطلبه علاج الكسور والجراح السطحية التى تحدث فى الحرب والصيد ، والطقوس

المتعلقة بالتحنيط ، واحتياجات الرسامين والنقاشين. وكانت تقيدهم فى تمثيلهم الجسم البشرى ، قوانين دقيقة مبنية على إلمامهم بالتشريح السطحى له ، وعلى فكرتهم عن جماله. ولذا فإن تلك النسب اختلفت باختلاف عصور حضارتهم ، كما هو واضح من المربعات أو التكعيبات التى كان الرسامون يستعملونها فى مسودات أعمالهم.

وربما ظن البعض أن ممارسة التحنيط قرنا بعد قرن ، قد أسهم فى تغذية علم التشريح. ولكن الحقيقة أن الذين زاولوا هذه المهنة كانوا إما فى مرتبة الكهنة ، وإما فى مرتبة الصناع. وكان الصناع على قول الإغريق من أحط الناس مقاما. والعلة فى ذلك هى أن الدين حظر التمثيل بالجثة ، أو امتهانها لقدسيتها. ولهذا فإن القائمين بالتحنيط كانوا يعتبرون من أتباع سيت الممقوت ، الذى عبث بجثة أخيه ، ومثل بها شر تمثيل ، بأن مزقها اربا ، ألقى بها فى مواضع متفرقة. وسنفرد للتحنيط بابا خاصاً.

إلا أن ممارسة التحنيط فى مصر الفرعونية ، قد بصرت المصريين بطبيعة وشكل محتويات الجسم الداخلية ، فتفوقوا فى هذا الميدان على الشعوب الأخرى التى كانت تحرق الجثث أو تدفنها. ثم أنها عودت العقول على هضم فكرة أن فتح الجثة لا يعد تمثيلا بها. وأتاحت لأطباء العصر البطلمى تشريحها تشريحا منظما ، لا تخبط فيه ، ومقارنة إصابات الأعضاء بالمرض ، بينما كان التشريح محرما على كافة شعوب العالم الأخرى.

على أن الكثير مما عرفه المصريون عن أعضاء الجسم ، مستمد من تشريح الحيوانات. فان الأسنان التى استعملت فى الكتابة الهيروغليفية ، مستمدة من ناب الفيل. وكتابة الرحم كذلك ، هى صورة رحم البقرة. كما أن إسم الرحم «حميت» هو جذر يوجد فى إسم أنثى الانسان والحيوان على السواء ، وكان يسمى ايضا «موت رمت» أى ام الرجال. وهذا يقارن

الكلمة اللاتينية للرحم وهى Matrix أى الأم.

ولقد حدد جرابو مدلول ٢٠٠ اسم من أسماء الأعضاء. وحدد ليفبر مدلول ٢١٤ منها. غير أنه ـــ اذا كانت الأسماء الواردة فى البرديات الطبية أسماء علمية ـــ فان بعضا آخر يمثل مرادفات شعبية وردت فى أدب الغزل ، أو تعبيرات دينية مذكورة فى التسبيح بأسماء الآلهة ، وكان الغرض منه التأكيد على أن أعضاء المريض أو المتوفى هى هى أعضاء الاله ، وفقا للعقيدة بأن لكل عضو الاها يحميه.

ولم تذكر **الغدة الدرقية** فى أيه بردية .. والمرجع الوحيد الذى قد يكون ذكرها هو بردية سميث ، فى الحالة رقم ٣٤ ، وهى حالة نقل طرف الترقوة الأنسى. فقد جاء فى وصفها أن الترقوة مربوطة إلى أعلا القص «النصاب» حيث تصل الى الزور ، الذى يوجد فوقه الـ «حت نبويت». وهذه الكلمة مركبة من لفظة «بيويت» (الترقوة) ومن كلمة «حت» المستعملة قبل إسم كل جزء من أجزاء الذبيحة التى تقدم للألهة كقرابيـن ، مثل الكبد والطحال الخ. ولذا فإن ابل استنتج أن هذه الكلمة تصف قطعة من اللحم ، توجد فى مقدمة الرقبة تعتبر «لقمة طيبة» تقدم للآلهة. وان هذه القطعة ما هى الا الغدة الدرقية.

وكان يكتنف علم التشريع كثير من التعثر. ففى علم العظام مثلا لم تكن هناك أسماء للعظام ذاتها ، وإنما كان الإسم يطلق على الطرف كله ، بما يحتويه من عظام وعضلات وأعصاب وشرايين ... الخ.

وكانوا يربطون بين كل عضو أو طرف ، وبين إله معين ، وفلك معين ، كما هو ظاهر من بعض التعاويذ: «رأسك رع ، ذراعك حورس ، سرتك نجم الصباح ، الخ».. ويعتقدون أن كل عضو منها ذو حياة خاصة مستقلة ، وأن له روحه وأهواءه وحياته الخاصة. أما الأوعية والعروق وما إليها

«المتو» فقد وصفناها فى الصفحات السابقة.

فـــن التشـــخيص. أما وسائل تفحص المريض ، فكانت تعتمد على الخبرة ، وتتسم بدقة الملاحظة. وكان هذا الفحص يبدأ عادة باستجواب المريض استجوابا دقيقا ، ثم يتبع الاستجواب فحص شامل بالنظر يبدأ بالوجه. فيلاحظ لونه ، وإفرازات الأنف والجفنان والعينان.. الخ. ثم تشم روائح الجسم من عرق ونفس ، ثم يأتى فحص البطن ، فالأعضاء الأخرى (أوذيما ، رعشة ، دوالى ، براز ، عرق ، لعاب .. الخ). ويتبع الشم الجس والطرق وتقدير حرارة الجسم.

ففى الجس وصفوا كسر الجمجمة كالنحاس المتجعد تحت تأثير الحرارة ، وشبهوا ورما ينبض تحت اليد بيافوخ غير الملتئم ، وفرقوا بين الأورام المتموجة وغيرها ، وبين ارتفاع الحرارة الموضعى والارتفاع العام. أما عن الطرق فقد وردت فى بردية من البرديات هذه العبارة: «ضع أصبعك عليه وأطرقه».

ثم كانت تجيء الاختبارات الوظيفية ، مثلا:

١ ـــ قل للمريض: «انظر الى اليمين ، ثم الى اليسار ، والى فوق ، والى اسفل» فإذا لم يستطع المريض القيام بهذا ، شخص نقل فى فقرات الرقبة.

٢ ـــ «ارفع رأسك ، افتح فمك». وذلك لفحص الفك.

٣ ـــ ابسط ساقيك ، ثم اثنهما ، وجر قدمك (وذلك فى كسر بالعمود الفقرى)

وكانت هناك طرائق واختبارات خاصة للولادة وأمراض النساء سيجيء ذكرها فيا بعد.

ولم يفت المؤلفين فى الطب وصف سير المرض ، وأهمية ملاحظة أطواره

فى التشخيص والتكهن. فقد جاء فى بردية سميث فى وصف مرض لا شك أنه التتانوس أو الالتهاب السحائى:

ثانى فحص. اذا أصيب الجسم بالحمى وحدثت به تقلصات .. واذا وحدت وجه المريض وقد غطاه العرق ، وجمدت عروق رقبته وأسنانه وظهره ، وأزرق وجهه ، وانقبض فمه ، والتوى حاجباه ، وبدا وكأنه يبكى (الضحكة التهكمية لدى الاغريق) فقل: «هذا مرض لا أقدر له على شىء».

الفحص الثالث. ولكنك اذا لاحظت أن المريض شاحب الوجه ، وأنه بدت عليه علامات الاسترخاء ، فضع فى فمه أنبوبة ملفوفا حولها قماش ، وعالجه وهو جالس حتى يصل الى النقطة الحاسمة من مرضه.

ولم يكتف الأطباء بوصف أعراض المرض ، بل ذيلوا تشخيصهم بما يتوقعونه من نتائج مثل: «ألم فى الذراعين والصدر من ناحية القلب ، انه مهدد بالموت». وهذا الوصف يلائم وصف الذبحة الصدرية...

على أنهم لم يذهبوا الى أبعد من ذكر الأعراض لافتقارهم الى علوم أخرى تعين على ذلك. من هنا كانوا يذكرون العرض على أنه المرض نفسه ، مثل ذلك أن يقال: «دم فى البول».. الخ.

الأمراض المعروفة. وصف المصريون حوالى ٢٥٠ مرضا باطنيا وصفا دقيقا لا يخلو من الشاعرية فى التعبير. مثل تشبيههم الرجل الهزيل بالنسمة العابرة ، والدمل بالفاكهة الذابلة.. الا أن علماء الآثار لم يتمكنوا الى الآن من معرفة الكثير من الأسماء التى كانوا يطلقونها على الامراض. ومن المصطلحات التى أدركوا معناها: نوع من الحمى المصحوبة بطفح جلدى ، وقد فسره البعض بأنه الطاعون ، وآخرون بأنه الجدرى. ومنها نوع من الدود وصف بأنه «ينفرج» وقد يكون الدودة الوحيدة ، ونوع آخر

«مستطيل» وقد يكون الاسكاريس أو غيره من الديدان ، وعالجوه بالخس الدميسة والبصل وبذر الخروع وجذور الأرمان.

ومنها مرض الـ «عاع» الذى ناقشناه آنفا ، والذى ما تزال حقيقته مطروحه للبحث. وفى بردية أيبرس جاء وصف جميل للذبحة الصدرية: «اذا فحصت مريضا بالمعدة ، يشكو من آلام فى ذراعه وصدره وناحية من معدته .. قل بصدده: هذا شيء دخل من فمه والموت يهدده». وفى أمراض القلب عرفوا أن الورم المصحوب بالنهجان بعد أقل مجهود ، سببه ضعف القلب ، كما وصفوا الانسكاب التامورى ، وإدرار البول ، وقد يكون البول السكرى. وهناك أوصاف عدة لشلل الوجه ، ولشلل الجسم ، نتيجة حدوث جروح بالرأس والجمجمة.

أما أمراض المعدة ، فجاءت لها أوصاف عدة شملت أمراضا مختلفة لأعضاء التجويف البطنى. ولا شك فى أن مرض الدرن كان منتشراً فقد أكتشفت جثث مصابة بمرض بوت ، ووصلت إلينا عدة صور وتماثيل له. وقد عزا البعض موت توت عنخ آمون مبكراً الى اصابته بالتدرن الرئوى ، الا أن ذلك لم يثبت بالدليل القاطع.

أما فى الأمراض التناسلية ، فهناك عدة أوصاف لمرض يشبه السيلان مشابهة تامة. ولكن لم يوجد للزهرى أثر ، إذا استثنينا حالة (كشف عنها الدكتور زكى سعد فى حلوان) ودرسها الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين بالأشعة ، فوجد عظم الساق مصابا بالتهاب فى غشائه مما يسببه الزهرى ... وبعض قطع أخرى مشتبه فيها .. إلا أن وجود هذا المرض فى العالم القديم لم يقم عليه برهان حتى اليوم. وقد اكتشف روفر فى أنسجة بعض موميات الأسرة العشرين ، بعد تحضيرها بطرق خاصة ، بويضات

البلهارسيا وتصلب الشرايين. كما اكتشفت هذه البويضات فى مومياء محفوظة فى تورنتو بكندا.

وقد درس الدكتور محمد كامل حسين مجموعة العظام الموجودة الآن فى متحف التشريح بكلية طب جامعة القاهرة ، ووجد أن الامراض الروماتزمية كانت ولا شك منتشرة إنتشاراً لا نعرفه اليوم .. والكثير من تلك العظام مصاب بتكلس فى أربطة المفاصل ، مثل ما يحصل فى مرض «بكترف». وهذا نفس استنتاج روفر (شكل ١٨). كما انه وجدت زيادات موضعية بالجمجمة تشبه ما يحدث حول أورام الأم الجافية .. وفى متحف كارلز برج بكوبنهاجن رسم دقيق لحالة قدم قغداء نتيجة إصابة بشلل الأطفال ، نجد مثلها فى مومياء وصفها اليوت سميث.

أما البدانة ، فكان ينظر اليها بشيء من الازدراء. ومع أنها كانت منتشرة فى الطبقات العليا ، فان اصحاب المقابر فضلوا أن يمثلوا مفتولى العضلات ، على عكس حالتهم الحقيقية ، إلا فى بعض الحالات النادرة. وقد جمعنا بعض أمثلة تدل على معرفة أنواع البدانة ، وعلى حدة ملاحظتهم وواقعية رسمهم ... منها ملكة البونت (؟ الصومال) المرسومة فى معبد الدير البحرى (شكل ١٩). وهى مصابة ببدانة مفرطة. وقد قال البعض إنها مصابة بمرض الفيل. وانما رأينا الذى أبديناه فى مجلة مصلحة الآثار المصرية ، هو أنها كانت مصابة بمرض دركوم ، وقد نظر إليها نظرة مزرية ، الى درجة أن بعض زوار المعبد قرونا بعد بنائه ، رسموا لهذا النقش «كاريكاتورا» .. ومنها التمثال الجميل الموجود فى المتحف المصرى والمعروف باسم شيخ البلد ، لشدة شبهه لشيخ بلد عمال الحفائر الذين اكتشفوه (شكل ٢٠) .. ومنها بدانة الفرعون أخناتون المنحصرة فى أسفل بطنه وثدييه

واليتيه وأعلى الفخذين ، مما جعل مكتشفه يلتبس في جنسه ، ومما ينم عن مرض في الغدد الصماء .. ومنها نقش حارس باب المعبد-وأخيرا منها نقوش في مقبرتين بسقارة تمثل بعضها «نيفر سشم بتاح» بدينا على جدار ، ونحيفا يافعا مع زوجته على جدار آخر ، كأن وجود السيدة أوجب الاهتمام بمظهره. والآخر يمثل «عنخ ماحور» نحيفا على واجهة المقبرة ، وبدينا في ظلام الجدار الداخلي.

وبالعكس ، فقد صور الهزال والجوع بأبشع مظاهرهما في تصوير للمجاعة ظهر فيه رجل يأكل البراغيث التي كانت تعيش على جسمه النحيل (شكل ٢١).

وقد ادعى جريتوالد أن الملكة كليوباترة كانت مصابة بتضخم الغدة الدرقية ، وبنى هذا الادعاء على رسم لها بمعبد دندره .. الا أنى أعتقد ، بعد دراسة الأصل بدندرة وصور عدة لها ، أن نتوء الرقبة في هذا النحت مظهر كاذب ناتج عن طريقة النحت البارزة في استدارة ، الشائعة في عهد البطالمة ، كما هو ظاهر من ارتفاع جواف الابطين والكتفين والخدين أيضا في هذه القطعة نفسها ، وفي سائر نقوش هذه الحقبة.

وسنكتفي بهذا العرض المقتضب للأمراض التي عرفوها أو وصفوها فان المجال لا يسمح بالاطالة في ذكرها.

العــلاج بالعقاقــير. الآن وقد أطلع القارىء على كثير من أساليب علاج أسلافنا الجراحية ، يحسن أن نستطرد ، فنلقى نظرة عامة على بعض الطرائق الأخرى.

ولنبدأ بالعقاقير ، فلعل استعمالها يعتبر مثلا طيبا لازدواج الاتجاه الطبي المصري تحت تأثير النظريات الدينية من جهة ، والنزعة التجريبية التي امتاز

بها المصريون من جهة أخرى.

كانت معلومات الأطباء والكهنة ، ومن أليهم من المتطببين فى علم العقاقير ، متقدمة. وقد ورثنا عنهم أسماء مواد ونباتات عديدة وصلت الينا كما هى. منها نبات «بن» الذى يستخرج منه زيت البان. وكلمة Gum أى الصمغ ، المأخوذة من «كميت» التى تحورت فى اللغة القبطية والاغريقية الى كومى. وقد قيل أن كلمة «أمونيا» (النوشادر) أصلها من آمون (أى ملح واحة آمون أو سيوة). وأن كلمة «كيمياء» أصلها «كمت» وهو اسم مصر فى هذا الزمن.

وكانت قدراتهم الفنية تيسر لهم تجهيز المراهم والأقراص والأشربة وغيرها من الأدوية. وكان تركيبها مرتبطا دائما بالدين. غالبا ما يجرى فى معمل خاص فى المعبد اسمه «سيت» طبقا لوسائل سرية وطقوس جامدة ، ونسب معينة تقدر بالكيل لا بالوزن. ومن مظاهر هذه السرية أن كثيراً من العقاقير كان لها أسماء سرية لا يعرفها الا فئة مختارة. وقد جاء ذكر ما يقرب عن ٥٠٠ نوع من المفردات ، منها:

١ ــ **المواد المعدنية**: مثل الحجارة الكريمة (وبخاصة الفيروز) والذهب والفضة (للطلاسم والأحجبة) ، والشب وأملاح الانتموان وكاربونات النوشادر والجيروكاربونات الجير وصدأ النحاس (الزنجار) وأملاح الحديد والمغنسيا وسلفات الزئبق وأملاح الرصاص والبوتاس والصودا والنطرون.

واذا استثنينا تلك الأصناف التى استعملت لغلائها ، كالذهب والحجارة الكريمة ، التى ما يزال الفلكيون يعزون اليها قيما خفية ترتبط بالأفلاك ، فأن أغلب تلك المواد فعالة ومستعملة الى اليوم. فالشب قابض وموقف للنزيف. وكاربونات الجير معادل للأحماض وملطف للجلد. وصدأ

النحاس يعالج به الرمد. والمغنسيا ملينة. وأملاح الرصاص مرطبة للالتهابات السطحية وتستعمل فى علاج الكدم وما اليه.

٢ — **النباتات**. ولعلها تكون أهم جزء من أقرابازينهم. وقد عرفت مدلولاتها أولا من النقوش ، حيث رسمت — فى بعض الحالات — بجوار أسمائها. ومن المقابر حيث عثر على بعضها. ومن النصوص القبطية. ولكن الكثير منها ما يزال غامض المعنى ، وخصوصا أن بعض الأسماء كانت سرية. ومن الأنواع المعروفة: السنط (وهو طارد للأرياح ومنبه للقلب). ورجل الذئب ، والصبر ، والسنامكة (ولها فوائد ملينة محققة). واللوز (ملطف وملين). والشبت ، والأنيسون ، والبابونك ، والكمون ، وحب الهال (الحبهان) والنعناع ، وجوزة الطيب ، وحبة البركة (وكلها طاردة للأرياح وهاضمة). وشعر الجان ، والخروب (كان يستعمل لتقوية الباه ، وطرد الديدان وتحلية الأدوية). والقرطم ، والشِشم (وهو ما يزال يستعمل فى ريفنا ، وفى السودان ، لعلاج الرمد). والكولشيك (السورنجان أو اللحلاح ، وهو أنجع وأسرع علاج لنوبة النقرس). وعدة أنواع من النبات من فصيلة القرع (والكثير منها طارد للديدان أو ملين). والهندباء ، والحلبة (وصفت لإزالة علامات الشيخوخة). والتين ، والعرعر (وهو مدر ومطهر للبول). والجنطيان (منبه للشهية وهاضم). والأرمان (قشره كان وما يزال يستعمل لطرد الديدان). والسكران (مفيد لعلاج المغص ، وحصى الكلى ، وتقلصات العضلات والأمعاء). واللفاح (مسكن). والكتان ، والزنبق ، والخردل ، والمر ، والعفص ، والزعفران ، وبصل العنصل (مقوى لعضلة القلب ، ومدر للبول والبولينا). والأشماع ، والاشتراك (لبنى الرهبان). والتربنتين (لطرد الديدان ، وهو مفيد ، وكان شائع الاستعمال حتى وقت قريب). وغيرها.

وفى العقاقير النباتية ، ورد عن فوائد الخروع باب كامل فى لفافة إيبرز ، فقد جاء فيها: «لمعرفة ما يصنع بنبات الخروع ، حسبما وجدنا فى الكتابات العتيقة ، وهى شيء يجدى استعماله ، اذا صحنت جذوره فى ماء ، ووضعتها على رأس مريض ، فانه يبرأ فورا كالسليم. واذا مضغ المصاب بالاسهال قليلا من بذره ، وتناول معه الجعة ، طرد المرض من باطنه. والى هذا ، فإن شعر السيدات ينمو تحت تأثير بذوره. فهى تصحن ، وتمزج بالزيت ، ويدهن الشعر بها. ثم أن الزيت الموجود فى بذرتها يستعمل لدهان من يشكو من الأنف .. من رائحة كريهة ، علاج ممتاز حقا جرب عدة مرات».

٣ ـ **المواد الحيوانية**. العسل ، ولبن البقرة ، والحمارة ، والماعز ، والمرأة. ولقد اعتبروا فى جميع عصورهم أن لبن النساء عامة أرقى من لبن الحيوان ، ولكنهم كانوا يحلون فى المرتبة الأولى لبن المرأة التى أنجبت طفلا ذكرا. وبعدهم فإن أبقراط أوصى أيضا باستعماله ، كما أوصى الأقباط والعرب من بعده.

ولما كانوا يعدون هذا اللبن سائلا ثمينا ، حرصوا عليه ووضعوه فى أوعية مصنوعة فى شكل فرس البحر ، ثقبت ثدياها ليمتص الطفل منها الحليب (شكل ٢٢) أو فى شكل امرأة تحمل على ركبتيها ولداً وقرنا ، كالذى استعمل للرضاعة الصناعية فى القرون الوسطى (شكل ٢٣). وقد استنتج علماء الآثار ، من النحافة الشديدة الظاهرة فى أسفل جسم هذا الطفل ، أنه يمثل الطفل الهزيل الذى رزقت به إيزيس من أوزيريس ، والذى كان بالغ الضعف ، لأن اوزيريس أتى زوجته بعد وفاته.

ومن المواد الحيوانية الأخرى ، كبد الثور ، والعجل ، والخنزير. وكان

يستعمل لشفاء غشوة الليل. وقد دلت البحوث الحديثة أن غشوة الليل ناشئة فى أغلب الأحوال عن نقص فى فيتامين (أ) الذى يتوافر فى الكبد. ومن الأدوية التى استعملت أيضا لعلاج غشوة الليل ــ وقد تبعهم فى ذلك أطباء الأقباط ــ روث الوطواط وبوله. وقد قال «ليفبر» دون أن يذكر مرجعه : أنه ظهر من التحاليل ان روث الوطواط يحوى كميات كبيرة من فيتامين (أ).

ولم تنته قائمة علاجاتهم الحيوانية عند هذا ، بل استعملوا أيضا بعض الأسماك ، وصفراءها ، ومخ الحيوانات ، وشحمها ، وشعرها ، وإفرازاتها ، وفضلاتها.

وإذا كان الكثير من تلك المواد له فوائد علاجية أكيدة ، فان هنالك مئات من الأصناف التى يبدو لنا استعمالها بشعا أو سخيفا. أذكر منها على سبيل المثال: شعر التيس ، وسن الحمار ، وروث فرس البحر وغسالة الغسالات. وقد عدت من بين تلك الأصناف البقول المعطنة ، التى وصفت مع الدقيق ، لعلاج الأكزيما. والقشرة التى تغطى خشب السفن المغمورة ، لرفع الرحم إلى محله. ولعل المصريين القدامى فطنوا إلى أن تلك المتعطنات ، تحوى الكثير من المواد المطهرة الممتازة. فما هى فى الحقيقة إلا مزارع من الفطريات. وهى الفصيلة النباتية التى استخرج منها «فلمنج» وأمثاله البنسلين وسائر أنواع المضادات الحيوية ، التى يعدها الطب أبهر تقدم حققه القرن العشرون. وقد أوصى الأغريق ، وكذلك أطباء القرون الوسطى ، باستعمال المتعطنات. وقد لا يخلو من المغزى أن تلك العلاجات كانت مخصصة لأمراض تنتج من التلوث بالميكروبات ، التى قد تبيدها تلك الفطريات. ولا يتحتم علينا ــ لمجرد أن باستور لم يكن قد

اكتشف الميكروبات بعد ـــ أن نحكم على تلك الحكمة الشعبية بأنها كانت من ضروب السحر والفولكلور ، وإنما يجب أن نسلم بأنها كانت على الأغلب مبنية على التجربة ليس إلا.

وبالمثل ، فإننا إذا قلنا عن كل ما يبدو لنا غريبا فى تلك الوصفات أنه مخيف أو خيالى أو سحرى ، كان هذا حكما على المدلول الظاهر للأسماء الواردة. ولعل حكمنا هذا جائر ، إذ أن بعض تلك المدلولات ليست هى المعنية بالذات. فلا يعقل مثلا أن يدخل رأس الحمار فى مرهم ، أو أن تستعمل ريشة الإله تحوت ، أو أن يذاب سن الحمار فى الماء .. وكل هذا ورد ، ولذا وجب علينا أن نتأمل أولا لعل تلك الألفاظ أسماء سرية لعقاقير لا يعرف مدلولها الا العارفون ، أو أوصاف شعرية أو تشبيهية أو شعبية لبعض النباتات الطبية. وكلا الفرضين له ما يبرره. فمن المعروف أن بعض المواد كانت لها أسماء سرية حتى القرون الوسطى ، مثل التنين الأخضر لسلفات النحاس ، وغيرها من الأسماء التى استعملها الكيماويون الذين حاولوا تحويل المعادن الى الذهب ، والتى لم يبادروا بكشف مدلولاتها إلا لمعشرهم ، كشفا تدريجيا بعد كل خطوة من خطوات قبولهم فى طائفتهم السرية.

وهناك من جهة أخرى مفردات عدة ، ما تزال تحمل أسماء خيالية أو تشبيهية مثل: رجل الذئب ، وشوك الغنم ، وكف النسر (العقربان أو سفولوفندريون) وتراب اليابان ، وفسى كلاب .. الخ. وإننا إذا ما قرأنا ما كتب عن استعمالها ، فلا يخطر أبداً فى أذهاننا أن المقصود بها حقا رجل ذئب مفترس ، أو كف نسر يطير ، أو تراب من أرض اليابان ، أو ريح من خلف الكلاب.

ولذا يجدر بنا أن نخفف من حكمنا وأن نسلم بأن بعض تلك الالفاظ تسميات خيالية ، أو سرية ، لمواد علاجية معقولة وفعالة. ومن أمثال تلك الألفاظ ذيل الفار ، واذن الضبع ، ولسان البركة ، والقذارة التى تتجمع تحت أظافر المرضى ، وفضلات الذباب على الجدران ، وجلد من عند صانع الأحذية ، وماء غسالة الغسالين. ولقد توصل اللغويون الى فك بعض تلك الألغاز التى زادت فى صعوبة تفسير النصوص. فقد عرفوا مثلا أن الدمسيسة كان اسمه (قلب الرحم) ونبات الكروكوس هو دم هرقل . الخ.

وكان الأطباء يعدون الأدوية بنفسهم ، ولم يعتادوا كتابة الروشتات (التذاكر) للمرضى. والغالب أن قطع الخزف التى وصفها جونكير ، والمكتوب عليها وصفات أدوية ، كانت فى الحقيقة مذكرات يدونها الطبيب بجانب المريض ، لتذكره فيما بعد بنوع الدواء الذى عليه أن يركبه عند عودته الى منزله

وكانت أغلبية الوصفات مركبة من أصناف عدة ، ومكونة من القاعدة ، أى الجوهر الفعال ، مضافا إليه المصحح ، والسواغ. وكانوا يصفون العقاقير على شكل شراب ، أو مغلى ، أو منقوع ، أو حبوب ، أو مسحوق ، أو لعوق ، للاستعمال الداخلى. وللاستعمال الخارجى كانوا يستعملون اللبخ ، واللزق ، والنقط (القطرة) والمراهم ، والاستنشاقات ، والتبخير ، واللبوس ، والغسول الشرجى والمهبلى.

الباب التاسع

الجراحة وفـــروع التخصص

قال بعضهم مازحا: إنه لا يقدر مؤلف بما ورد فيه ، وانما بما حذف منه ، أى بقدر ما اقتضى تأليفه من دراسات وتأملات لم يذكر تفصيلها فى المؤلف ... نقتبس هذا القول فنقول إن أهمية بردية أدوين سميث بالنسبة لنا ، هى بقدر المعلومات التى تكدست حتما قبل أن تظهر منها تلك البردية كما تبرز الجزر الصغيرة من قمم الأقطار الغريقة.

وتلك الجزر التى وصلت الى أبصارنا قليلة. فاننا مثلا لم نعثر الى الآن على مؤلفات علمية تصف عمليات الجراحة كما كانت تجرى ، فلم تقدم لنا البرديات إلا معلومات ضئيلة بالنسبة للجراحة. وبقية معلوماتنا مستمدة من بعض النقوش التى وجدت على جدران المعابد والمقابر ، ومن نتائج تفحص الجثث والموميات.

علاج الجـــروح. وإذا تتبعنا طريقة علاجهم للجرح ، وجدنا أنهم استعملوا طرائق لا تختلف فى مبدئها عن أحدث الطرق. اللهم إلا إذا استثنينا استعمال العقاقير الجديدة (المضادة للميكروبات ، مثل البنسلين والسلفا وما إليها) التى لم يكن لهم اليها من سبيل. على أنهم مع هذا استعملوا المعطنات فى العلاج .. نراهم يعالجون الجروح النظيفة فى أول يوم بالخياطة والأربطة اللصاقة. أما الجروح الأخرى فكان يوضع عليها لحم طرى. وقد لا تبدو لنا هذه الطريقة غريبة ، اذا تأملنا فى أنها أنجع وسيلة لوقف النزف ، بل أنها الطريقة الوحيدة فى بعض الحالات. خصوصا اذا كان هذا النزف من نوع الرشح ، الذى لا يصدر من شريان مقطوع. وهذا لما يحتويه اللحم من المواد «المجلطة» التى تسهم فى تجلط الدم الطبيعى. وقد استعملت هذه الوسيلة فى العصر الحديث فى جراحات المخ ، وأصبحت مألوفة عند الجراحين ، حين لا يمكن كشف الشريان المقطوع أو ربطه.

أما بعد أول يوم ، فكانت الجروح تضمد بالأعشاب القابضة والعسل. والعسل أيضا له فوائد أكيدة ، فانه محلول مركز ، يستدر من حواف الجروح ــ حسب قوانين التناضح (اوزموز) ــ مصلا مليئا بالمواد الشافية والخلايا المضادة للعدوى

• وقد قيل إن المصريين كانوا يعرفون التخدير ، ويستعملون لهذا الغرض حجر منف. وهو نوع من الرخام ، مخلوط بالخل. ومثل هذا المزيج يتصاعد منه غاز حمض الكاربونيك الذى له خواص تخديرية محلية. وقد جربنا هذا ، ولم نجده فعالا. كما قيل إنهم كانوا يرقعون الأعضاء بأعضاء أشخاص آخرين. ولكن هذا خيال لا يستند الى أى دليل.

العمليات الجراحية. تلقى بعض النقوش ضوءاً قويا على بعض نواحى الجراحة ، وإن كانت تضع أمامنا ألغازاً ليس من السهل حلها. وأول سؤال يطرأ على البال هو ما الغرض الذى كان يرمى اليه من نقش تلك العمليات على جدران مقابر لم يكن أصحابها من الأطباء...؟. أكانت تمثل وقائع من ماضى الموتى؟. أكان يرمى الى إحيائها بالسحر لضمان اجرائها للمتوفى ، إذا احتاج اليها فى حياته الآخرة؟. هل كان الغرض من تمثيل الختان فى مقبرة «عنخ ماحور» التأكد من إجرائه للاولاد الذين قد يرزقهم بعد وفاته؟. ما هذه الفروض الا تخيلات تافهة الأسس ، قدمت إجابة لاسئلة ما تزال مطروحة للبحث الى اليوم.

وأهم تلك النقوش أو الصور ، النقشان الموجودان فى سقارة فى مقبرة «عنخ ماحور» اللذان يمثلان عملية الختان.

الختـــان. يقول هيرودوت: «إن الذين زاولوا الختان من أقدم العصور هم المصريين والآشوريون والكولشيديون والأحباش. أما غيرهم من الشعوب فقد عرفوه عن المصريين».

وكانت عملية الختان تجرى للأولاد غالبا بين السادسة والثانية عشرة من أعمارهم فى المعابد. ومع ذلك فإنها لم تكن فرضا على الشعب ، كما صارت فيما بعد عند اليهود أو سنة عند المسلمين ـــ إذ أننا لا نجد أثراً لها فى كثير من النقوش ـــ ومع أنها لم تكن مقصورة على الملوك والكهنة ، إلا أنه يبدو إنها كانت تقتصر على من يقومون بطقوس معينة.

وقد أتخذ بعض المؤرخين من تتابع الولادة والختان مباشرة ، فى بعض نقوش المعابد الخاصة بالأولاد وطفولة الأمراء ، دليلا على أن هذه العملية كانت تجرى بعد الولادة بأيام. وقال البعض الآخر إن هذا التمثيل كان رمزيا

فقط ، حيث أن النقوش الاخرى ، وخصوصا تلك التى تخص غير الملوك والآلهة ، مثلت العملية وهى تجرى على أشخاص لا شك فى أنهم قد تقدموا فى السن الى حد ما.

وربما كان مفيداً درس نقش شوهد على جدران مقبرة (غنخ ماحور) من عصر الأسرة السادسة فى سقارة (شكل ٢٤). وهذا النقش مكون من جزئين: ففى الجزء الأيمن نرى الجراح ــ وقد ذكرت قبالته عبارة «الكاهن المختن» ــ نراه وقد أمسك بيده اليمنى بآلة مستطيلة فى وضع عمودى على العضو التناسلى ، وفى اتجاه طول الجسم .. ونلاحظ أنه لا تبدو على أسارير وجه المريض ما ينم على تألمه. ويقول الطبيب:

«إن هذا يجعله مقبولا للكحت (أو الدهان) فى حالة جيدة».

أما الجزء الأيسر ، فيظهر فيه الجراح ممسكا بآلة أو بشىء آخر بيضاوى الشكل ، يلمس به العضو التناسلى الذى يسنده بيده اليسرى. وفى هذا الجزء تدل ملامح المريض على شعوره بالألم. ونلاحظ كذلك وجود مساعد الجراح خلف المريض ، وقد أمسك بذراعيه على ارتفاع وجهه فى قوة وعنف .. ونقرأ قول الطبيب : «امسكه كيلا يقع». ورد المساعد أو المريض: «سأفعل وفق إشارتك».

وبديهى أن تكون اللوحة الأولى لايضاح التحضير أو التخدير للعملية ، إذ يقول الطبيب: «هذا الدهان يجعله مقبولا» .. ولا تنم ملامح المريض عن أى ألم ... وأن تكون اللوحة الثانية لتبين الطور الثانى من العملية ، وهو اجراء الجراحة نفسها.

إلا أن موريس بيلى لم يقبل هذا التفسير. وقطع بأن الكتابة الأولى تتعلق بالرسم الثانى ، والعكس بالعكس. وفسر وجود ذراع المختن فى وضع مقوس

الى أعلا ، على أنه دليل على ما يبذل الطبيب من جهد. وقال إن العملية ليست مؤلمة فى ذاتها ، وإنما يحدث الألم بعد إجرائها ، على إثر وضع المرهم على الجرح أو تضميده. وذهب بيلى فى تفسيره وضع الآلة المستطيلة عموديا على العضو ، بأن العملية كانت تجرى على مرحلتين: الاولى هى إحداث قطع مستطيل ، من منتصف العضو الى آخر القلفة. والثانية قطع دائرى فى العضو ، يبدأ عند القطع الأول. ولكن ربما كان وضع الرسام للالة على شكل مستطيل خضوعا لقوانين الرسم عند قدماء المصريين.

ولقب الختان يلفت النظر من غير شك. فقد لقب «بالكاهن المختن» وربما يدل هذا على أن العملية التى يقوم بإجرائها لا تدخل ضمن اختصاصات الجراح العادى.

وربما يستغرب وجود مثل هذا النقش فى مقبرة رجل لا يعرف عنه انه كان طبيبا. ولكن الغرض من وجود تلك النقوش فى المقابر ، قد يكون إثارة الحياة فيها بطريقة سحرية بعد اغلاق المقبرة. فتجرى مثلا عملية الختان على أطفال المتوفى ، إذا رزق أولاداً بعد موته.

وهناك نقش آخر (شكل ٢٥) لعملية الختان فى كرنك ، يظهر الجراح وهو يضع الآلة القاطعة بيده اليمنى على العضو التناسلى فى مستوى الكمرة ، بعد ربط العضو برباط دائرى على قاعدته. ويفتح فتحة القلفة بأصابع يده اليسرى. وهذا من غير شك ليتجنب جرح العضو عند القطع. ولكن الآلة القاطعة تختلف عن الرسم الأول ، فهى أشبه بمشرط أو سكين مكشوط الحد.

ويذهب بعض المؤرخين الى أن الختان لم يكن يجرى فى الماضى بالشكل المتبع الآن. أى أنه لم يكن استئصالا كاملا للقلفة ، وإنما كان مجرد قطع

مستطيل يجرى على ظهرها للاكتفاء بفتحها.

وقد حاول الرومان والمسيحيون تحريم الختان. ولكنهم لم ينجحوا ، لأنه كان — كما قلنا — مفروضا من بعض الطقوس الدينية. ويروى سترابو أن هذه العادة كانت تزاول كذلك بالنسبة للبنات ، وإن لم يكن هناك ما يدل على أنها كانت تتم على الطريقة المتبعة فى النوبة والسودان ، وذلك بالرغم من أن هذه الطريقة تدعى «بالختان الفرعونى».

ويروقنا أن نتصور أن تلك النقوش المخفية فى ظلام المعابد ، كانت لوحات تدريسية تكمل تعاليم الكتب ، وتصحب التلقين الشفوى فى سراديب المعابد السرية ، ولا تعرض إلا على المختبرين من التلاميذ.. شأنها شأن النقوش والرسوم اللاهوتية التى كانت تزين القاعات السرية ، وغرف الآلهة بالمعابد ، والتى كانت تصور بشكل حى أسرار الدين الخطيرة للمريدين من التلاميذ ... وإلا فما هو الغرض من نقش تلك العمليات؟.

وبينما لا يوجد محل للشك فى معنى هذين النقشين ، فان المقبرة نفسها تحوى نقشين آخرين يتركان مجالا كبيراً للتخيل فى التفسير ، مما لا يسمح بالجزم بما يمثلانه. ويبين هذا النقش أشخاصا يعنون بقدمى ويدى شخص آخر .. ممسكا ذراعه بيد منقبضة (شكلى ١٤ و ١٥). وقد رأى فيهما البعض رسما للتدليك و «المانوكور» و «البديكور» والبعض الآخر عمليات جراحية .. وقد دون الفنان الذى قام بالنقش عبارة فى أسفل كل من اللوحتين. الأولى: «انته واتركنى وشأنى». والأخرى: «لا تسبب لى كل هذا الألم..».

وهناك نقشان متشابهان ، أحدهما خاص بالملك «عحا» ووجد فى ابيدوس (العرابة المدفونة). والثانى خاص بالملك «دجير» (شكل ٢٦) ووجد

فى سقارة. والاثنان يرجعان الى أول عصر الأسر ، ويتصلان باحتفالات اليوبيل الملكى «الحب سيد» التى كان الغرض من طقوسها إعادة قوى الحياة الى فرعون الكاهل ، وبالتالى الى الدولة بأجمعها.

ويمثل كل من النقشين ، شخصا جالسا يصوب نحو رقبة شخص آخر آلة رفيعة مستطيلة يمسكها من طرفها. أما هذا الشخص الآخر فهو ساجد منحن الى الوراء ، وذراعاه مربوطتان خلفه. وقد فسرهما بترى وغيره ، بأنهما يمثلان ذبح الأسرى أو القرابين البشرية فى حفلات جناز الملك .. ألا أن فيكانتييف قدم لتفسيرهما نظرية أخرى. فقد قال أن هذين النقشين ـــ بما أنهما متصلان بمراسيم «الحب سيد» ـــ فإنهما يرمزان الى إعادة القوى الحيوية الى الملك العجوز والدولة ، بأن شبه فيهما الشعب بمريض قرب من الاختناق ، وشبه طقوس اليوبيل بعملية اعادة النفس بفتح القصبة الهوائية (التراكيوتومى).. أما زهرتى اللوتس والبردى (شارة الشمال وشارة الجنوب) الموجودتين على نفس الحجر ، فإنهما تسمحان باعتبار هذا النقش كتابة تصويرية تقرأ على الشكل الآتى: «يتقبل الشمال والجنوب هواء الروح».

ويستند فيكانتييف فى ذلك الى وضع الشخصين ، وطريقة مسك الآلة المدببة ، ويرجح انها عملية جراحية ، وليس قتلا غادراً ، أو تحنيط جثة ، حيث أن الجثة ما كانت وضعت فى هذا الوضع الساجد..

كما أنه قدم حجة لفظية تؤيد معرفة المصريين لهذه العملية ، وهى أن فعل «سرق» ومعناه «تنفس» تليه فى الكتابة الهيروغليفية علامة المشرط. بينما أن افعالا اخرى تؤدى معنى التنفس ، تليها شارات القلع أو الأنف البشرى. مما يوحى بأن لفظة «سرق» هذه المخصصة بالمشرط ، تعبر عن نوع خاص من التنفس ، هو التنفس بشق القصبة .. ثم إن الكلمة

المصرية «سرق ـــ حتب» أى فتح الزور ، أو إعطاء النفس ، تخصص أيضا بنفس المشرط .. وهذه الحجج تبرهن ، فى نظرة فيكانتييف ، على أن المصريين كانوا يعرفون ويجرون عملية التراكيوتومى. وقد أيد الأستاذ محمد كامل حسين وجهة نظر فيكانتييف ، وأضاف أن المشرط الخاص المبين فى الرسم ، شكله شكل المعين ، الذى يسمح بتغيير اتجاه القطع ، كما هو واجب فى تلك العملية.

ولكننا نقترح تفسيراً ثالثا ، قريبا من تفسير تبرى القائل ، بأن هذا النحت يمثل طقس تضحية الأعداء المأسورين ، إما فى الواقع ، وإما على سبيل الرمز ، فى أثناء احتفالات اليوبيل الملكى ، لتأكيد دوام الانتصار عليهم. والذى نقترحه ، هو أن هذا النحت ، يعبر عن طريق التصوير ، عن لعنة الأعداء واستمرار قهرهم. وهذا ما يومئ به جزء من نص «كتاب الكهوف» الوارد فى مقبرة رمسيس السادس ، والذى يوجه الى أعداء أوزيريس أعنف العبارات : «يا أيها مقصوفى الرؤوس ، الراكدون فى موضع الدمار. أيها المقهورون ، عديمى الروح فى موضع الدمار. يأيها المنقلبين رأسا على عقب ، الملطخون بالدماء ، منزوعى القلوب ، أعداء أوزيريس الوصى على «الدوات» وملك الغرب ، إنى إسلمكم الى الهلاك ، إنى ألقيكم الى الزوال». وهذه العبارات المهلكة ، مصحوبة برسومات (شكل ٢٧) تمثل هؤلاء الأشرار والدم يسيل نحو قلوبهم المنتزعة من موضع فى أعلى صدورهم ، هو الموضع ذاته الموجهة اليه الآلة الحادة فى نحتى «چر» و «عحا».

وقد ذهبت الى بعض التفصيل فى هذا الشأن ، لأبين الصعوبات التى يواجهها علماء التاريخ فى جناء المعلومات عن تلك العصور البائدة ، ونوع

وطرق الاستنتاجات التى يصلون اليها.

ومن العمليات الأخرى التى كان المصريون يجرونها ، عمليات البتر (شكل ٢٨) وخصى الحيوانات .. وأما عملية التربنة ، فقد كانت تجرى حتى فى العصور السابقة لمينا. وقد يكون إجراؤها أول الأمر متصلا بالسحر ، وأن الغرض منها كان إخراج الأرواح الشريرة من ذهن المريض. إلا أن بردية ادوين سميث ذكرت عملية انتزاع العظم المكسور فى حالة كسر فى الجمجمة.

وقد وصل الينا تصوير جميل ، على جدار معبد كوم امبو ، لعدة آلات زعم أنها جراحية ، وان كنا نشك فى نسبتها (شكل ٢٩). والمتاحف تزخر بآلات يظن أنها كانت تستعمل فى الجراحة ، إلا أنه لا يمكن تحديد استعمالها بالضبط ، أو التأكد من أنها كانت حقيقة مستعملة للجراحة ، إن لم توجد فى مقبرة طبيب أو يذكر معها استعمالها. منها المخالب والمقصات والمشارط والأبر.. الخ.

الكســـور. وجدت آثار عدة لها فى الجثث. وهذا لأن العظام لا تتحلل.. وقد بدأ دراستها روفر ، وأنشأها علم الباليو باتولوجيا (علم امراض العصور السالفة). وتبعه كامل حسين فى هذه الدراسة. وقد ساعد على هذا الكشف عن مقبرة فى طيبة تحوى ستين جثة مصابة بجروح مختلفة ، والغالب أنها كانت مدفنا لقتلى معركة هائلة. ولربما كان أبشع مثال لتلك الكسور ، ما أصاب جمجمة سقننرع ، أول من نادى بالجهاد ضد الهكسوس من الكسور والسهام التى أدت به فى الميدان.

وقد كانت حالات الكسر فى عظم الفخذ كثيرة. وكانت تشفى تاركة أثراً ضخما حول محل الالتئام ، وقصراً فى العظم. أما كسور العضد ،

فكانت نتائجها أحسن ، من حيث استقامة العضو ووظيفته ، بسبب ضعف القوى العضلية الجاذبة لطرفى الكسر. وقد وجدت حالات عدة لكسر الزند وحده. والمرجح أن تكون نتيجة لضربة مباشرة على العضد المرفوع للدفاع عن النفس (اليوت سميث). وكانت تلك الكسور الفردية تشفى بسهولة .

وقد عرف مؤلف بردية سميث أهمية قرقرة العظام تحت اليد فى تشخيص الكسور ، وفرق بينها وبين الجزع ، الذى فسره بأن الأربطة تصاب دون أن يتغير وضع العظام. وشبه كسر الجمجمة أحيانا بإناء من الفخار مثقوب ، وأحيانا بالنحاس المتجعد تحت تأثير النار .. كما أنه فى التكهن عن مآل الحالة ، عرف قيمة جس جرح الرأس ، وسوء مآل تلك الحالات التى لا يشعر فيها بنبض بالمخ ، وتلك التى يحس فيها العظم منخفضا داخل المخ. أو التى يلاحظ فيها تصلب الرقبة ، والنزف تحت الملتحمة ، والنزف من المنخرين ، ومن الأذن .. كما وصف كسر العمود الفقرى وما يتبعه من شلل رباعى ، وتبول لا إرادى ، وانتصاب واستمناء دون فقدان الوعى. وخص الاستمناء بكسور وسط الرقبة فقط. ومما يدل على إجرائه الصفة التشريحية لتلك الحالات ، أنه يقول فى وصف تلك الكسور ، ان الفقرة تنغرز فى الفقرة التى تليها ، كما تغوص القدم فى أرض منزرعة.

ولقد عرفت الجبائر ، واستعملت منذ قبل عهد الفراعنة. وعثر اليوت سميث على كثير منها فى مقابر الأسرة الخامسة ، وكانت مكونة عادة من قطع من الخشب أو القشرة أو الكتان ، متصلة كل منها بالأخرى بأربطة ومبطنة بالكتان. أما من حيث وضعها ، فقد كان العضو المجبر يحاط بها كالأسطوانة. وكان يراعى أن تصل الى المفصلين أعلا وأسفل الكسر. ولم يعرفوا مزايا الشد ، التى فطن اليها الإغريق بعدهم. الا أنهم كانوا يردون

الكسور والخلوع بمهارة فائقة ، كما هو ظاهر من صورة عمارة أيبى ، ومن التعليمات الواردة ببردية أدوين سميث والخاصة بكسر فى الترقوة: «إذا فحصت رجلا مصابا بكسر فى الترقوة ، ووجدت بها قصر ، فقل: هذا مرض سأعالجه. وألقه على ظهره ، ثم ضع بين اللوحين وسادة ، حتى يبتعد جزءا ترقوته ، ويرجع العظم المكسور الى موضعه. وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على الجانب الأنسى من ذراعه. وعليك أن تضمده «بالأيمرو» ثم بالعسل فى الأيام التالية».

وفى الحالة ٢٥ من نفس البردية ، توجد إرشادات خاصة بخلع الفك الأسفل: «إذا تفحصت رجلا مصابا بخلع فى الفك الأسفل ، ووجدت فمه مفتوحا ولا يستطيع قفله ، فضع إبهاميك على طرفى فرعى الفك داخل فمه ، وأصابع يديك تحت ذقنه ، ويجب عليك بذلك أن ترده الى الخلف فيعود الى مكانه».

وتلك العبارات تحتوى على وصف دقيق لتشخيص المرض وعلاجه ، بطريقة قال عنها الأستاذ محمد كامل حسين ، إن الطب الحديث لم يجد حتى الآن أحسن منها. بل أنها ترمى الى درجة كمال فى الشفاء لا داعى عمليا لتحقيقها.

أما كسر الأنف ، فكان يعالج بإدخال لفائف صغيرة من الكتان داخل فتحات الأنف لحفظ شكله.

ولكن الكسور المفتوحة لم تعالج بالنجاح نفسه. فإن معظم ما وجد منها فى الجثث ، لم يلاحظ فيها أى تغيير فى العظام ، مما يدل على حدوث الوفاة بمجرد وقوع الحادث.

الحـــروق. ولننتقل الآن الى الحروق. وقد استقينا معلوماتنا عنها من برديتى لندن وأيبرز. وكانت تعالج بالعسل ، والزيوت ، والمواد الدهنية ، مصحوبة بالتعاويذ. ومثال هذا ، الحوار الآتى ، الذى كان يقرأ عند وضع مزيج من لبن امرأة أنجبت ولداً ذكراً وصمغ وشعر تيس على الحرق:

«الرسول: ابنك حورس يحترق على هضبة الصحراء.

«ايزيس : هل يوجد هناك ماء

«الرسول : لا يوجد هناك ماء

«ايزيس : عندى ماء فى فمى ، ويجرى نيل بين فخذى ، ولقد حضرت لأطفىء النار».

الأورام : درستها بردية إيبرز ، ووصفت الأورام الدهنية والفتق (شكل ٣٠) والتمدد الشريانى. وأوصت عند تفصحها بجسها ، لمعرفة ما إذا كانت تتموج. فإذا كانت متموجة ، أوجب اعتبارها سائلة أو دهنية ، ومعالجتها بالمشرط أو الفصد أو الكىّ. وأضافت «ومنها ما هى أبشع ، وهى التى تظهر البترات ، ويتلون الجلد ، وترتسم الرسوم على سطحها ، وتحدث آلاما شديدة. فقل عنها : أنه ورم الإله خوتسو ، ولا تفعل شيئا». وهذا الوصف يتفق مع الجمرة الخبيثة أو السرطان.

والوسيلة لعلاج الأورام عامة ، كانت المشرط. بشرط تجنب الأوعية الدموية ، واستعمال الكى ، لمنع النزف. وكان الكى يجرى بواسطة آلة خشبية مدببة ، يوضع طرفها فى فتحة فى قطعة من الخشب ، ثم تدار بسرعة حتى ترتفع حرارتها. وهناك جثة ظهرت على فخذها آثار لمثل هذا الكى.

وقد قيل إن المصريين كانوا يعرفون التخدير. وكذلك الترقيع بأعضاء

أشخاص أخرى .. الا أن الشك فى صحة هذا مسموح. وقد ناقشنا هذا فيما سبق.

الـولادة. لم تكن المصريات يضقن بالحمل أو ينفرن منه .. ومع أنه وجد وصفات عدة للحيلولة دونه ، أو لإحداث الإجهاض ، إلا أنهن كن يلذن بالآلهة مبتهلات أن تساعدهن على الإنجاب ، كما يتضح ذلك من كتابات دونت على كثير من التماثيل.

وكانت هناك طرائق متعددة للتأكد من خصب المرأة أو عقمها ، ومعظمها مبنى على فكرة وجود اتصال فى المرأة الخصيب بين تجويف المهبل وبقية الجسد. وبعض هذه الطرق قد ورد فى برديتى كاهون وكارلزبرج .. منها مثلا وضع «لبوس» من الثوم فى المهبل ، ثم ملاحظة رائحته فى الفم.

وقد ورث ابقراط صفة لبوس الثوم هذه من المصريين ، وأخذها منه العرب والأوروبيون فى القرون الوسطى حتى القرن الثامن عشر. ويبدو أن هذه الطريقة ليست خيالية ، فان الاستاذ الدكتور احمد عمار يرى أن المادة العطرية فى الثوم ، قد تمر من البوق الى التجويف البريتونى ، إذا كان البوق سالكا ، ومنه الى الرئتين فالنفس. وينبهنى سيادته الى أن السيدات اللاتى يحقن بمادة الليبيودول فى الرحم ، لمعرفة ما اذا كان البوقان سالكين ، يشعرن بطعمه فى الفم اذا كانا سالكين .. أما الوسائل الأخرى فإنها تبدو غريبة .. ومنها تبخير المهبل بروث فرس البحر. فإذا طردت المرأة غازات من الخلف ، دل ذلك على أنها ستحمل. أما إذا تقيأت فلا أمل فى حملها...

وكان لديهم وسائل عدة لتشخيص الحمل ، ولمعرفة جنس الجنين. وهذه الوسائل بعضها أشبه ما يكون بالسحر ، والبعض الآخر له أساس علمى. وكل تفكيرهم فى هذا المضمار كان مؤسسا على فكرة واحدة ، هى أن

الجسم الذى يضم جنينا ذكراً ، لا بد وأن يكون مختلفا عن الجسم الذى يحمل جنينا أنثى. وكان الأطباء يوصون فى تشخيصهم للحمل ، بوضع بول المرأة الحبلى على مقدار من القمح ، ومقدار من الشعير ، فإن نبت القمح كان الجنين أنثى وان نبت الشعير كان الجنين ذكرا. إما ان لم ينبت أى من النوعين من الحبوب ، كان ذلك دليلا على عدم وجود الحمل ... كما كانوا يضعون البول على مواد مختلفة ، ويشخصون الحمل اذا لم تحدث عفونة ولم تظهر ديدان.

وقد أجرينا مع الأستاذ الدكتور رشدى عمار ، تجارب لمعرفة تأثير البول على انبات الحنطة والشعير. وتمخضت التجارب عن أن أبوال الذكور وأبوال السيدات غير الحوامل لا تسمح بهذا. بينما أن أبوال ٤٠٪ من الحوامل تسمح بهذا. ولكننا لم نجد فارقا بين تأثير أبوال اللاتى يحملن ذكوراً وبين تأثير تلك اللاتى يحملن أناثا.

ويوجد فى أرمنت ، نقش على جدار أحد المعابد ، يرجع الى عصر البطالمة. وهذا النقش يصور الطريقة التى كانت متبعة فى الولادة. فالمرأة الحبلى ساجدة ووراءها ثلاث نساء .. وأمامها المولدة ، والمرضعة ، والخادمة التى تتعهد المولود بالرعاية فى طوره الأول ، وآلهة.

وكانوا يعتبرون أن المجيء بالرأس هو المجيء الطبيعى ، كما هو ظاهر من الحرف الهيروغليفى الرامز للولادة .. وهو يمثل المرأة الحبلى وهى ساجدة ، والوليد خارج من بين فخذيها برأسه وذراعيه. إلا أن هذا الرأس ، وهاتين الذراعين ، رأى فيها الآخرون بقايا حرف (مس) ومعناه الولادة. وهناك رسوم أخرى تمثل الملكة وهى ساجدة فى نفس الوضع على سرير رسمى ، وأمامها الأمير الوليد والمولدة (شكل ٣١).

كما أن هناك كتابة هيروغليفية لمحل الولادة ، ترجع إلى القرون المتأخرة. وهى أكثر دقة فى رمزيتها. إذ تصور علامة الولادة ، يعقبها حجران للتخصص. وبخصوص الحجرين ، فقد جاءت فى بردية تورينو الجملة الآتية : «ومكثت كالوالدة على القرميد». ولنذكر فى هذا الصدد ، أنه جاء فى التوراة بمناسبة قتل أولاد اليهود الذكور الذى أمر به فرعون: «وانظروا الى الحجرين ، فإذا كان الطفل ذكراً فاقتلوه». والظاهر من كل هذا أن المرأة الحامل كانت تلد وهى راكعة على حجرين بينهما فراغ. وما كرسى الولادة الحالى — من حيث الشكل — سوى هذين الحجرين ، موضوع عليهما حجر ثالث مستعرض. وقد ظهرت على نقش بارز موجود فى متحف القاهرة امرأة قرب موعد ولادتها ، فجلست فى مقصورة وذراعاها مبسوطتان ، ويداها على فخذيها ، وتسندها الالهة حات حور من الناحيتين. إلا أنه لم يصل الينا أى كرسى من تلك الكراسى ، سوى الذى وجد فى مقبرة «خيموزى». وقد قال بعض العلماء أنه كرسى لقضاء الحاجة ، وليس من تلك الكراسى التى كانت مخصصة للولادة.

وتروى بردية وستكار قصة امرأة وضعت ثلاثة توائم .. كما توضح كيفية قطع الحبل السرى وغسل الوليد ... ويضيف ، أن الأم قد عادت الى السهر على شئون بيتها بعد أن طهرت نفسها أربعة عشر يوما.

وكانت أم الوليد ترضعه فترة طويلة تصل الى ثلاث سنوات. أما المرضعات المحترفات ، فلم يكن يستخدمن إلا فى الأسر الثرية. وربما كانت إطالة فترة الرضاعة ترجع الى عدم الرغبة فى الحمل المتتابع.

وفى بردية إيبرز توصية بملاحظة جودة اللبن ، والأسس التى يكون عليها التكهن بمصير الطفل. هل سيعيش أم سيقضى نحبه؟. وتشير برديتا برين

وأيبرز الى عدة أدوية لعلاج أمراض الأطفال ، التى من بينها الاضطرابات التى تقترن بظهور الاسنان. وكانت تعالج باعطاء الطفل أو أمه فأرا مطهواً. والذى يؤكد تطبيق هذه الوصفة هو العثور فعلا على بقايا فأر فى أمعاء طفل عاش فى العصر الذى سبق الأسر. وهذا الدواء بالذات قد وصفه ديوسقوريد ، وكذلك الإغريق من بعده ، فالرومان ، والأقباط ، والعرب .. بل والأوربيون أيضا قبل القرن السابع عشر بعد الميلاد.

أمراض النســـاء. تناولها جزء كبير من بردية إيبرز ، وثلاث صفحات من بردية كاهون. وخمسة أسطر من بردية برلين ، وعشرة أسطر من بردية لندن ، وسبع قطع من بردية كارلز برج.

وليس من شك فى أن كل ما ورد عن أمراض النساء قد نقل عن نص واحد ، قد يكون مقتبسا من المجموعة الطبية التى ذكرها كليمان الاسكندرى ، وقال عنها إن الجزء الخامس منها مخصص للرمد والسادس مكرس لأمراض النساء.

ومن المؤكد أن الزواج المبكر ، والولادات المتعددة فى سن حديثة ، والأعمال المرهقة التى تقوم بها المرأة قبل الولادة ، وكذلك الإشراف على هذه الولادة بوساطة القابلات ، كل هذا قد أسهم فى مضاعفة عدد الأمراض التى كانت تصيب المرأة فى مصر القديمة. وكانوا يعتقدون ان أعضاء الحوض عائمة متجولة فى التجويف الباطنى. فكان يتحتم عليهم فى حالة المرض ، ارجاع الرحم الى محله ، وإغراؤه على ذلك ، بأن تقف المريضة ويبخر تحتها بشمع معطر.

وقد وصف المصريون سقوط الرحم وعلاجه ، إما بالتحاميل ، وإما

بالتبخيرات المهبلية بالغائط المجفف ، والتربنتين ، أو بتمثال من الشمع على شكل أبى منجل. كما وصفوا الحقن المهبلية بعصير بعض النباتات لالتهاب الرحم واتساع عنق الرحم. أما المرض الذى سموه بآكل الرحم ـــ وقد يكون السرطان ـــ فكان علاجه موضعيا.

وقد عزا المصريون إلى مرض الرحم أعراضا عدة ، مثل الآلام التى تصيب أسفل البطن والرقبة والأذنين ، وأمراض العيون والنوبات العصبية. ووصفت بردية كاهون بالتحديد ، مرضا يشمل التهاب الرحم ، وآلام المفاصل والعينين ، وهذا يطابق ما يسببه الجونوكوك ، وبعض الفيروسات ، من الالتهاب الموضعى والروماتيزم المفصلى والتهاب العينين.

وقد وجدت آلات تشبه القرن المجوف ، ولها طرف ، على شكل ملعقة أو منقار الطير. وقيل عنها إنها كانت تستعمل للحقن الشرجية أو للحقن المهبلية. إلا أن الرأى أستقر الآن ، على أنها كانت تستعمل ، اما للرضاعة ، واما لمناولة المشروبات للمرضى. وقد وردت تلك الآلة على حِجْر السيدات ، الممثلة على الإناء المخصص لجمع لبن امرأة أنجبت طفلا ذكراً ، والذى كانت تسند إليه فوائد علاجية ممتازة.

عن أمراض الرأس. كان المصريون يعرفون الجمجمة ، والأم الجافية ، والمخ ، والسائل النخاعى. وكانوا يعتقدون أن ثمة أربعة شرايين تمد الرأس بالغذاء. وعلى حد قولهم «تمنحه الراحة» من ناحية ، وتسبب الصلع من ناحية أخرى. ويقول هيرودوت إن الصلع كان منتشراً ، ولنذكر أن أمينوفيس الثالث ، وسيتى الأول ، ورمسيس الثانى ، كانوا صلعا. وأن الملكة نفيرتارى كانت تزدان بشعر مستعار.

ولقد عالج المصريون الصلع بزيت الخروع ، كما نفعل نحن فى الوقت الحاضر. وكانوا يخلطونه بدهن فرس النيل ، والتمساح ، والقط ، والثعبان ، والتيس البرى. وكذلك بمخالب الكلب ، وحافر الحمار ... الخ.

ووصف المصريون الصلع البقعى (الثعلبة). وعالجوه بمراهم خاصة مصحوبة بتعاويذ موجهة الى الشمس ، التى كثيراً ما صورت على شكل شخص يمسك بشعر عدو شرير قبل أن يذبحه.

وكانت تستعمل مواد غريبة لعلاج الصلع ، منها ما تختزنه الأظافر من قذارة ، وغائط الذباب. ولنذكر أن ديوسقوريا. استعمل رأس الذباب لهذا الغرض نفسه .. ومنها المراهم السحرية المركبة من دم ثور ، وأحشاء الشيلان ، والأعضاء التناسلية للكلبة. وقد تكون الوصفة الأخيرة نافعة بما فيها من هورمونات ، ولكنها لم تجرب حديثا.

والصداع النصفى كان يعالج بدهن الرأس برأس سمكة مقلية ، وهذا على سبيل السحر ، لتحويل الألم من رأس الانسان الى رأس السمكة.

الأنف. كانت هناك عدة وسائل لعلاج ما يصيب الأنف من زكام أو عطاس. وقد وصفت أعراض الزكام وصفا دقيقا فى التعويذة التالية: «انصرف يا ابن الزكام الذى يكسر العظام ، ويهشم الجمجمة ، وينخر المخ ، وينصب المرض فى فتحات الرأس السبع (أى يسيل مخاط الأنف والدموع ، ويحدث التهابا فى الإذنين والفم). لقد أحضرت لك جرعة خاصة ضدك الخ». أما الدواء فكان مركبا من لبن امرأة وضعت ابنا ذكراً ، ومن صمغ ونبات لم يعرف نوعه حتى الآن ، ونوى البلح.

الأذن . كانت الأذن تعتبر من أعضاء الجسم الهامة ، إذ أنه كان يعتقد

أن روح الحياة تدخل من الأذن اليمنى ، ونفس الموت من الأذن اليسرى. وكانوا يعالجون أمراضها بالزيوت والأصماغ.

الأسنان. ذكر لنا هيرودوت من بين من ذكرهم من الاخصائيين ، أخصائى الاسنان. وكانوا على درجات مختلفة. فمنهم صانع الاسنان مثل «منقورع عنخ». وجاء ذكره فى مصطبة «نى عنخ سمخت» طبيب فرعون. ونفريرتيس الذى ذكر فى مصطبة «سبشات حتب». مما يدل على مركزهما الثانوى بالنسبة الى صاحبى المقبرتين. ومنهم رئيس الاخصائيين مثل «حسى رع» و «بساميتك سنب».

وبالرغم من أن «التسويس» كان نادراً ، فإن «البيوريا» والخراجات كانت منتشرة ، لا سيما فى العصور المتأخرة. وقد ازداد هذا الانتشار بتقدم الحضارة ، وزيادة الترف فى الطبقات العليا ، كما هو ظاهر من جمجمة أمينوفيس الثالث الذى قال عنه إليوت سميث مازحا بعض الشيء بعد أن اكتشف غشاء من الطرامة حول أسنانه وخراجين تحتها: «لم يواجه فرعون فى ترف طيبة دسائس الكهنة فحسب ، ولكنه كان كذلك ضحية لالام أسنانه».

ومن أسماء أمراض الأسنان التى لم يصل علماء اللغة الى تفسير مدلولاتها اسم «آكل الدم» وقد فسرها إيبل بالأسقربوط ، وغيره بالبيوريا. وفى حالة حدوث التسويس ، كانوا يحشون الاسنان بالعسل والصمغ وسلفات النحاس. وكانت الاسنان القلقة تربط بالاسنان المجاورة لها ، بخيط من الذهب أو الفضة (شكل ٣٢ ، ٣٣) .. وكانت الخراجات تصرف بواسطة تربانة صغيرة فى عظم الفك. ولم يصلنا أى دليل على أنهم كانوا يخلعون الأسنان. إلا أن الأقباط بعدهم كانوا يخلعونها بالحديد ، بعد وضع مخدر

من نبات الحريق على الخد أو على جذور الأسنان. ولتقرح اللثة ، كانوا يصفون المراهم المركبة ، من اللبن والبلح الطازج والخروب الجاف أو الأنيسون والتربنتين وثمار الجميز.

الرئـة. يؤخذ من بردية إيبرز أنهم كانوا يعتقدون وجود صلة بين الرئة والمعدة. ويبدو ذلك فى بعض وسائلهم فى العلاج ، كبلع بخار الماء الساخن .. وقد كانت أغلب أدويتهم لأمراض الرئة مكونة من اللبن أو الزبد أو العسل .. وجدير بالذكر أن هذه المواد تستعمل حتى يومنا هذا لتخفيف حدة السعال.

الطحـال . لم تذكر بردية إيبرز عن الطحال سوى جملة واحدة ، هى أن هناك أربعة شرايين بالطحال ، تمده بالماء وتنقل اليه الهواء.

الكـبد. لم يعرفوا عنه شيئاً كثيراً ، إلا أنهم كانوا يصفون لعلاجه تناول التين والجميز. ويوصون باستعماله لعلاج عمى الليل.

الكليتين. لم يأت وصف لهما .. وربما يرجع ذلك الى مركزهما فى الجسم. فانه صعب عليهم وصول أيديهم إليهما من الأمام ، أثناء عملية التحنيط ، لوجودهما خلف البريتون. أما كلمة «دبيت» وهى أقرب كلمة لمعنى الكلية ، فكان معناها «القطن».

على أنه وصل إلينا وصف للمثانة. فقد عرف أنها تتصل بشريانين ، كما عينت أدوية كثيرة لعلاج احتباس البول ، أو تعسره. وكذلك التبول غير الارادى ، والالتهاب الذى يصيب المثانة .. ومعظم هذه الأدوية كان يعتمد على نباتى الكرفس والبقدونس.

وقد ورد فى بردية سميث وصف التبول غير الارادى ،وانتصاب الذكر نتيجة لانتقال فقرة فى الرقبة. كما ذكر البول الدموى أكثرمن مرة ، وربطوه

بالقلب ، وعالجوه بعلاج للبطن والقلب.

الرمد. لقد كانت أمراض العيون شديدة الانتشار ، كما هو شأنها اليوم. وكان عدد الأكفاء كبيراً. وكثيراً ما نجدهم ممثلين فى النقوش ، وهم يزاولون مهنة الغناء أو الموسيقى ، وهذا نوع من التأهيل (شكل ٣٤).

فلا غرابة إذن أن يكون جزء كبير من البرديات قد خصص لها. وهكذا نجد مائة وصفة مدونة فى بردية إيبرز ، من بينها واحدة تنسب إلى آسيوى من ببلوس. وقد نقلت بردية كارلزبرج بعض هذه الوصفات. وكان أطباء العيون فى حماية «تحوت» الذى شفى عين حورس ، بعد أن كان سيت الشرير قد مزقها الى أربع وستين قطعة. وكذلك فى حماية آمون الطبيب الذى يشفى العيون بغير دواء ، آمون فاتح العينين المخلص من الحول ، ولكن الإله الخاص بأمراض العين هو «دواو». وكان يعبد فى «إيونو» وهى عين شمس. ونرى فى الشكل ٦ حملة علمه ، وعليه شارته الدالة عليه. كما نرى هذه الشارة فى القاب أحد كهنته «نى عنخ دواو» : الحياة ملك لدواو.

وممن ذكروا أيضا من أطباء العيون «ميدو نفر». وكان أيضا من كهنة دواو ، وبالاضافة فقد كان فى المعبد نفسه كهنة أطهار ليس لهم أى اختصاص طبى. إلا أن العصور المتأخرة استبدلت فى «ايونو» (دواو) بحور دمنهور ، الذى انتقل فيما بعد من أيونو الى ليتوبوليس ، وهى أوسيم ، على شاطىء النيل الغربى أمام عين شمس.

وقد كان «إيرى» و «أواى» و «مدونيفر» المذكورون ، يعالجون العيون مع سائرأجزاء الجسم .. ولم يصل الينا ممن كرس كل نشاطه لعلاج العيون سوى اسم «نى عنخ دواو» وهو من عصر الأسرة الخامسة. والظاهر أن

العلاقة الوطيدة بين الوظائف الخاصة بطقوس «دواو» فى عين شمس ، والإله مختنتى ايرتى إله اوسيم (ليتوبوليس) والمتعلقة بعلاج العيون ، مبنية على العلاقة بينهما فى الأساطير. حيث حكى أن حورس الناشىء فى دمنهور ، والذى حل محل دواو فى عين شمس ، أعطى عينا من البلور الصخرى الى منتى — ايرتى بعد أن فقد بصره ، فأصبح اسمه بعد ذلك مختنتى — إيرتى.

وكانت دراية المصريين بأجزاء العين الداخلية دراية سطحية ، عدا الجسم الزجاجى. وقد ترتب على هذا بالطبع أنهم لم يطلقوا أسماء على هذه الأجزاء.

وكانوا يسمون الحدقة «الفتاة التى داخل العين» .. وهذه التسمية نجد مثلها فى اللغة اللاتينية Pupilla أى «الفتاة القاصر». وفى اللغة الاسبانية Nina de los ojos. وكانوا يظنون أنها منبع الدموع. أما الجفن ، فكانوا يطلقون عليه «ظهر العين». وقد أدت قلة الاصطلاحات الفنية التى وصلت الينا عن العيون الى صعوبة تفهمنا لكُنة الأمراض المشخصة.

ولنذكر الآن بعض أمراض العيون كما عرفها وعالجها المصريون :

١ — التهاب الجفون ، وقد عالجوه بنقط من الصبر والنحاس وورق السنط ، تقطر فى العين بواسطة ريشة نسر.

٢ — مرض الشعرة ، وقد خصصت له فقرة فى بردية إيبرز. وكان يعالج بتعديل وضع الرمش ، أو نتفه ، ووضع مرهم مصنوع من دم البرص والخفاش وصفرة العصافير.

٣ — الشتر ، او انقلاب الجفن للخارج وعلاجه المواد القابضة.

٤ — الرمد الحبيبى. وقد سموه «نحات». وكانوا يعالجونه بالجرانيت والنطرون الأحمر المحروق وكبريتات الرصاص.

٥ ـــ الصنفـــر ، وعلاجه بيض الرخم (النسر) وحجر الصوان الأسود وغائط البجع والتمساح.

٦ ـــ دهن العينين. غالبا هو الـ Pingeeula وتمدد الحدقة وله علاج.

٧ ـــ العنبة.

٨ ـــ التدمع ، والسحابة (البياضة) التى أصيبت بها الملكة نفرتيتى آية الجمال.

٩ ـــ الكتراكتا ، وقد سموه «صعود الماء الى العين». ونحن نسميه اليوم الماء الابيض ، كما أطلق عليه الإغريق والرومان اسم الماء المنسكب،وعلة هذه التسمية أن المصاب بهذا المرض ينظر وكأن سائلا يحول بينه وبين رؤية الأشياء.

وكان مرض الماء هذا يعالج بمراهم معينة وبعض التعاويذ .. ولم يقدر له أن يعالج بالجراحة بعد ذلك الا فى القرن الثانى بعد الميلاد. وكان ذلك فى الاسكندرية ، حيث نقل «أنتيلس» الطريقة الجديدة عن كريزيب بقبرص.

أما جروح العيون ، فقد جاء فى ذكر أدويتها غائط الأطفال المجفف.

وقد ظهر فى رسم لمصنع المعمار «ايبى» شخص يضع قطرة فى عين مصاب ، وقد قال عنه آخرون أنه ينتزع منه جسما غريبا (شكل ٧).

وجاء فى برديتى إيبرز ولندن ذكر مرض «عمى الليل». وكان يعالج بالسحر ، وبكبد البقر بعد تدخينه. وهذا العلاج ليس بالخيالى ، إذ أن الكبد يحتوى على كميات كبيرة من فيتامين (ا) وهو أحسن علاج لهذه الحالة. كما ورد فى إيبرز كذلك فقدان البصر. وقد وصف لعلاجه وضع ماء عين خنزير فى الأذن ، وترتيل تعويذة فحواها أن العين تستبدل بالعين.

الباب العاشـــر

الصحة العامـة

يقول هيرودوت إنه ـــ حين زار مصر فى القرن الخامس ق م ـــ أعجب بحالة المصريين الصحية. وأنه وجدهم أسلم الناس بدنا بعد الليبيين .. فكيف يمكن تقبل هذا الزعم ، مع الانحطاط الذى وصل اليه المستوى الصحى فى القرن الثامن عشر الميلادى؟ .. كان هيرودوت قوى الملاحظة ، ثاقب البصيرة. ولقد دلت عدة دراسات حديثة على أنه كان صادقا ، وهو يدون ملاحظاته الشخصية عن البلاد التى زارها ، غير مكتف بالاستماع الى الأقاويل. وإن كان يقبل بسذاجة الروايات الخرافية التى كان ينقلها اليه الرواة عن الماضى. فهل خدع بمظاهر زائفة؟. أم قاس على بلدته هاليكارناسوس فى آسيا ـــ حيث كانت الملاريا متفشية ـــ مصر التى كان هذا المرض فيها اقل انتشاراً؟. أم أن تدهوراً فى الصحة العامة حدث فى العصور التى تلت .. ولعلنا نجد تفسير ذلك فى الكلمة التى قالها نابليون: «ليس لإدارة فى بلد من البلاد أثر أقوى وأعمق منه فى مصر.

فإذا طهرت القنوات .. واذا طبقت لوائح توزيع المياه .. وصلت مياه الفيضان الى مناطق سحيقة ، وأدى ذلك الى مضاعفة الإنتاج. إن الحكومة الفرنسية لا تملك سلطانا على المطر أو الثلج. ولكن الحكومة المصرية تسيطر بشكل مباشر وحاسم ، على مدى وصول مياه النيل الى مناحى مصر المختلفة .. ومن هنا التناقض بين ما حققه هذا البلد من ثراء فى عهد البطالمة ، وبين ما رزىء به من إفلاس عندما رزح تحت نير الحكم العثمانى».

وقد أكد المؤرخون ــ اللاحقون بهيرودوت ــ العناية الفائقة التى نالتها الصحة الفردية والصحة العامة فى مصر القديمة. قال ديودور الصقلى عن اسلوب حياة المصريين : «يبدو كأن منظمه كان طبيبا ، رتبه وفقا لمقتضيات الصحة ، لا مشرعا وفقا لقوانين».

وكانت تلك العناية تتناول المصرى من مهده. فلقد كان الطفل يرضع لبن أمه أو مرضعة ثلاثة سنوات. وكان يوصى الأقارب بفحص اللبن ، لمعرفة صلاحيته ، بشم رائحته التى شبهت ــ اذا كان صالحا ــ برائحة الخروب. ثم كانت تبذل فى سبيل صحته عناية قصوى ، تتبين جليا لمن يتصفح البرديات. إذ أنها مليئة بالوصفات الخاصة بتبوله وسعاله وزكامه .. الخ. أما التوعك الذى يصحب ظهور الاسنان ، فإنه كان يوصف له أحيانا دواء غريب. وهو أن تبتلع الأم أو الطفل فأرا مطهواً ، وأن توضع عظام هذا الحيوان حول الرقبة فى قماش من الكتان عقدت فيه سبع عقد. وقد وجد إليوت سميث عظام فأر داخل الجهاز الهضمى لطفل فى نجع الدير ، الأمر الذى يؤكد استعمال تلك الوصفة. وقد تبع المصريون فى ذلك ديوسقوريد ، اذ أنه أشار بالوصفة نفسها لعلاج سيل اللعاب

واضطرابات التسنين عند الأطفال. وبعده الأغريق والرومان والأقباط والعرب وأطباء القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين فى انجلترا ، حيث يوصف هذا الدواء الى اليوم فى بعض الأقاليم.

وكان الزواج يتم بمجرد البلوغ ، مما جنب المراهقين الكبت الجنسى وما ينشأ عنه من عقد ، وأسهم فى وضع المجتمع على أسس عائلية صحيحة. وكان زواج الأخ من أخته ، بل الوالد من ابنته مقبولا ، بل ممعنا فى القدم. ويروى التاريخ أن أوزيريس تزوج بأخته إيزيس ، وأن نفتيس اقترنت بأخيها سيت. وقد احتفظ الفراعنة بتلك العادة تقليداً للآلهة ، وحرصا على صفاء سلالتهم. وهم — إما لعدم إدراكهم فى أول أمرهم لدور الزوج فى تكوين الجنين ، وإما بغية التأكد من صفاء انحدار السلالة — لم يعترفوا بالوراثة إلا عن طريق الأم. فكان يتحتم على فرعون أن يكون من أم هى بنت فرعون. وبالتالى أن يتزوج أيضا من بنت فرعون ، حتى يكسب ابنه حق الجلوس على العرش. فإذا كان من أبناء فرعون تزوج بأخته. وإذا كان غريبا كحورم حب أو توت عنخ آمون ، تزوج بابنة فرعون ، وكان له بعد ذلك أن يتزوج من يشاء. ولذا تكثر فى ألقاب الملكات عبارتا «الزوجة الملكية» و «الأخت الملكية» الخاصتان بالزوجة أو الاخت التى من سلالة فرعون. وكان لهذا الاهتمام بنقاء السلالة سبب سياسى دينى هام ، وهو أن فرعون كان سلطانا بحكم انحداره من الشمس. فكان يتحتم عليه أن يحقق هذا.

وقد عاب الأغريق هذه العادة على المصريين ، زاعمين أنها تنافى أبسط القيم البشرية. وما يزال الاعتقاد سائداً حتى الآن ، بأن هذه العادة تجمع العوامل الوراثية الضارة فتعرض لظهور الأمراض الخلقية أو تضاعف من وطأتها فتضعف النسل. ولكن روفر قال بعد دراسة مستفيضة ، إنه لا أثر

لمثل هذا الانحلال فى الأسرة الثامنة عشرة. وهى التى أنجبت أكبر تسعة ملوك. ولا عند البطالمة. والحقيقة هى أن الزواج من الأخوات ، يضخم ويبرز أى لون من الصفات الخلقية فى السلالة ، نافعة كانت أم ضارة.

وكان تعدد الزوجات مباحا .. وكان للرجل أن يقتنى الجوارى .. غير أن الزواج بأكثر من زوجة كان محرما على الكهنة. ولكن الظروف الاقتصادية كانت تحد من هذا التعدد ، بحيث أضطر أغلب المصريين الى الاكتفاء بزوجة واحدة.

وقد جاء ذكر البغاء ، الذى نشأ تسهيلا لغير المتزوجين وللجنود والمسافرين. والى جانب هذا وجد عالم الراقصات والمغنيات ، اللاتى مثلن على الرسوم ، وجاء ذكرهن فى القصص وفى نصائح الحكماء الى الشبان. ومنهن كانت راقصات آمون اللاتى لم يكنّ نماذج للفضيلة. وكن يترددن على المحلات المشبوهة. على أنه لم يعثر على أى أثر فى المعابد أو المخطوطات يؤكد وجود بغاء مقدس فى المعابد كالذى وجد فى بابل والهند.

الرياضة البدنية. وكانوا يدركون قيمة الالعاب الرياضية فى تكوين الشباب ، ويهتمون بممارستها ، وعلى رأسهم فرعون الذى كانت الحرب أهم شواغله. الأمر الذى اقتضى الدأب على التدريب على ألعاب القوى منذ الطفولة استعداداً لها. وانا لنقرأ أن رمسيس الثانى فى شبابه مع زملائه ، كانوا دائبى التمرين. وأنه لم يكن يصرح لهم بتناول أى طعام قبل أن يتسابقوا مسافات طويلة. وقد وردت تفاصيل عن تدريب الأمراء والفراعنة على جدران حجرتين : إحداهما لتحوتمس الثالث ، والأخرى لابنه خبر رع ، الذى خلفه على العرش باسم امنحوتب الثانى. والذى قيل عنه إن ذراعه ثقيلة ، وأنه لم يعرف من بين جنوده أو مشايخ البلاد أو كبار بلاد «رتنو»

من يقوى على شد قوسه ، وكان حسبما ورد فى تقرير الأطباء الذين تفحصوا مومياه ، ذا قوة فذة.

وكان على المحارب أن يتدرب على التجديف والرماية والفروسية .. قالت المتون عن الأمير رع : «... انه كان صلب الذراع ، واذا ما أمسك بالمجداف ، وأدار دفة الزورق على رأس مائتى بحار ، فهو لا يعرف التعب. بل ما يزال يعمل مجدافه الذى طوله عشرون ذراعا عندما تقرب المركب من مرساها بعد نصف أتور (مسافة) ، بينما يكون التعب قد نال من البحارة كل منال». وقيل عنه فى الرماية : «... وشد ثلاثمائة قوس صلبة لامتحانها ، لتمييز الصانع الغبى من الماهر. وبعد أن اختار لنفسه قوسا لا عيب فيها ، ولا يقدر غيره على ثنيها ، دخل المرمى الشمالى على ركابه ، مثل «مونتو» فى جبروته ، فرأى به أربعة أهداف من نحاس آسيا ، سمك كل منها راحه يد ، ووضعت بحيث تفصل بين كل اثنين منها عشرون ذراعا. فأمسك بقوسه ، وأنتقى أربعا من النشاب ، وأسرع نحو الأهداف ، وهو يرمى بالنشاب مثل الإله «مونتو» فيخترق كل سهم الهدف ويسقط من خلفه. ثم يعالج التالى. وهذا ما لم يقدر عليه أحد سوى الملك شديد البأس الذى نصره آمون». هذه الرواية ، التى رويت أيضا عن أبيه «من خبر رع» تذكرنا بما رواه هوميروس فى الأوديسة ــ بعد تحوتمس بألف سنة ــ عن أوليسوس بعد ما عاد من مغامراته ، ولم يعرفه أهله إلا عندما شد قوسه التى لم يكن غيره يقوى عليها.

أما شغفهم بالفروسية ، فظاهر من رواية أخرى عن الأمير نفسه. فانه برع فى ترويض الخيل. وعندما ترامت الى أبيه «من خبر رع» الرهيب أخبار مهارته ، سر لها ، وأزدهى بها ، وأمر أن يعطى أحسن الخيل التى فى

حظائره ليدربها ويقويها. فجعل منها الأمير الشاب خيلا نادرة المثال ، لا تعرف للتعب معنى. ومن الروايات الأخرى الدالة على ولوع أمراء المصريين بالخيل ، أن رمسيس الثالث كان يتفحص خيله بنفسه يوميا. وأن «بى عانخى» عندما فتح بلدة ، وقهر الأمير «نمارت» زار الحظائر ، ووجد خيلها فى حالة هزال شديد ، نتيجة للحصار الطويل الذى فرضه على البلد. فحنق على عدوه ، وقال له: «بقدر ثقتى بأنى حى ، وأن أنفى شامخ فى الحياة ، وإنى أحب رع ، أقول إن تجويعك الخيل أقسى على قلبى من أظلم عمل أتيت به .... أما تعلم أن الإله بسط ظله على ؟ ... لقد ولدت من بطن إلهى ، إن البذرة الآلهية فى».

ولم يقف الفراعنة عند هذا الحد ، بل كانوا مولعين بالقنص (شكل ٣٥) فتجدهم يقطعون مسافات طويلة ليقتنصوا الوحوش التى كانت اختفت إذ ذاك من وادى النيل. ونرى «من خبر رع» ذاته ، يذهب الى وادى الفرات ، حيث يهاجمه قطيع من مائة وعشرين فيلا ، يتوجه أضخمهم نحوه ، فيعرض حياته للخطر ، ويكاد يفتك به ، لولا زميله أمنحتب الذى قطع خرطومه ... ولم يذكر «من خبر رع» هذا التفصيل فى الرواية الرسمية التى أمر بنقشها على الحجر فى «نباتا» مع انه قال فيها: «رويت هذا دون كذب». ولم تكن تعرف الحقيقة لو لم يروها امنحتب نفسه ...

وكذلك نرى رمسيس الثالث فى تصاوير مدينة حابو ، يصطاد الأسود بالسهام والرماح .. وهناك تصاوير أخرى تبين كيف كانوا يقتنصون الثيران الوحشية وغيرها من الوحوش كفرس البحر .. الخ.

أما الجمهور فإن ألعابه لم تكن أقل تباينا. ونجد صورها تغطى جدران مقابر بنى حسن (شرق المنيا) وغيرها (شكل ٣٦). منها العاب الكرة ،

والرق ، (شكل ٣٧). والمصارعة بمختلف حركاتها ، ومسكاتها. والعابا تذكرنا بما نسميه اليوم «الجمباز الايقاعى». وتلك الصور جديرة بأن يدرسها المختصون ، ويقارنوها بالمصارعة الحديثة ، فقد يدركون أن الكثير من الجديد مستمد من القديم ، ثم لعلهم يجدون فيها جديداً ينفعهم . ومن الألعاب التى مارسوها ، ألعاب سباق مختلفة ، ومحاولة فريق شد فريق آخر لالقائه على الأرض .. الخ ..

أما الفتيات ، فكن يفضلن ألعاب المهارة على ألعاب القوى. كأن يتبادلن الكرات راكبات ظهور زميلاتهن. وكان ينبغى لكل شابة أن تجيد الرقص. وكن يربطن فى آخر ضفائرهن كرات ، ويمسكن المرآة بأيديهن ، ويقفزن ويستدرن ويلتوين على تصفيق المتفرجين الإيقاعى.

كل هذا كان من شأنه أن ينشىء جيلا من الشباب ، قويا ، شجاعا ، سريع الحركة ، مفتول العضلات نحيف الخصر. وذلك هو الشباب الذى أعجب العالم بشكله المصور على النقوش القديمة.

النظافة الشخصية. لقد أعجب السياح الاغريقيون بمختلف مظاهر نظافة المصريين ، مثل عادة غسل أوانى الشرب ، واستعمال الملينات والمقيئات شهريا. ولا شك فى أن للدين والكهنة فضلا كبيراً فى تعليم الشعب النظافة. وبعد أن أشفق هيرودوت على الكهنة من تفانيهم فى النظافة ، قال: أنهم بالضرورة يجدون فى مناصبهم ما يعوضهم عن هذه القيود.

ولم يعرف المصريون الصابون (اخترع فيما بعد). بل كانوا يستعملون فى الغسيل الصودا أو الرماد أو النطرون. وهى مواد لا بأس بها ، حيث إنها تذيب الدهنيات. وكانوا يدهنون البشرة بالزيوت والروائح لصيانتها ، وبزيت

الحلبة للتخلص من شوائب الشيخوخة. وكانوا جميعا ــ رجالا ونساء ــ يتخلصون مما ينمو على أجسامهم من شعر ، أما بالنتف أو بالحلاقة .. أما الكهنة فكانوا يحلقون شعر رؤوسهم ووجوههم ، ويلبسون الشعر المستعار ، واللحى الصناعية.

ومن الأدهان التى كانت تستعمل لمنع شيب الشعر ، دم الثيران السوداء ، ودهن الثعابين السوداء ، ورحم القط ، وبيض الغراب. ولشفاء الصلع ، دهن الأسد ، وفرس البحر ، والتمساح ، والقط ، وشوك القنفذ المحروق ، وقدم الكلب ، وحافر الحمار. ويلاحظ أن أستعمال أدهان الحيوانات السوداء لإعادة لون الشعر ، وكذلك دهن الأسد وفرس البحر ــ اللذين يتمتعان بلبدة غزيرة لإعادة الشعر الى الصلع ــ مبنيان على القياس. ومع ذلك فليس من شك فى أن نتائج علاجاتنا الحالية لا تفوق ما كانت تؤديها تلك العلاجات التى نهزأ بها.

وكانوا يعنون برائحة لبسهم وأجسامهم وأفواههم. فكانوا يبخرون ثيابهم بمثل هذه التبخيرة التى وردت فى لفافة إيبرز : «لبان جاف ، بذر الصنوبر ، صمغ التربنت ، قرفة ، بذر الشمام ، غاب فينيقيا. وهذه كلها تصحن ، وتوضع على النار». وكان هذا المزيج يخلط بالعسل ، وتركب منه أقراص للاستحلاب فى الفم. أو يوضع على حجر ساخن لتبخير المنازل.

ومن الوصفات التى كانت تستعمل للتخلص من البراغيث والذباب والبعوض والسحالى والثعابين ، مزيج من النطرون ، والفحم ، ونبات قوى الرائحة اسمه «بيت» يرش به المنزل. وكان هذا ولا شك علاجا ناجعا للتخلص من تلك الآفات.

وهناك وصفات أخرى لصيانة المنازل تبدو لنا عجيبة. منها استعمال

شحم القطط لابعاد الفيران. وما نشك فى أن هذه الفكرة مردها الى الوهم بأن الفيران ، لخشيتها القطط ، تنفر من شحمها ولو كانت ميتة. ومنها وضع حيوان «سمر» على النار حتى يموت ، لقتل السحالى. وبالعكس ، قتل السحالى بالنار ، للتخلص من حيوان «سمر» ، الأمر الذى يفرض تجاوبا خفيا بين الحيوانين. ومنها كذلك ادخال سمكة «بلطية» مجففة فى جحور الثعابين ، لمنعها عن الخروج .. وقد وردت كل هذه الوصفات فى بردية إيبرز. ولا أصل لها من الوجهة الواقعية.

الغـذاء. أما الغذاء ، فكان أهمه الخبز والجعة. وكان الخبز يصنع من الشعير والقمح الصلب ، مسحوقا سحقا بدائيا ، يترك فيه الكثير من القش والفضلات ، مما كان يسبب ــ بالمضغ ــ تآكلا كبيراً فى الأسنان.

وأهم ما كان يتناوله المصريون القدماء من الأطعمة الحاوية للمواد الزلالية ، أنواع السمك. وكانوا يأكلونها مشوية ، أو مسلوقة ، أو نيئة ، أو مجففة ، فى حرارة الشمس ، أو محفوظة فى الملح (كالملوحة أو الفسيخ). وكانوا يعرفون البطارخ (شكل ٣٨).

وكان يباع الملح على شكل قوالب كبيرة ، عثر على الكثير منها فى الآثار. وقد أثبت التحليل أنها ــ حتى التى ترجع الى الأسرة السادسة .. (٢٢٠٠ ق م) وهى أقدم ما وجد ــ أقول إن التحليل قد أثبت نقاءها وخلوها تماما من الشوائب ، مما يدل على أن الملح فى عهد الفراعنة كان يستخرج من منابع مالحة وليس من البحر.

وكان الملح ذا رمز دينى كشأنه فى التوراة ، إلا أن هذا الرمز كان يرتبط عند المصريين ارتباطا أوثق بالنطرون ، الذى كثيراً ما كان يستعاض به عن

الملح فى حفظ الأطعمة. وكان معظمه يستخرج من وادى النطرون ، والجزء الأقل من الكاب ، بالقرب من أرمنت ، ومن نوكراتيس فى الدلتا وكان يسمى «نترى». وهذه التسمية التى نستعمل مشتقاتها الى اليوم «نترات» و «نتريك» الخ .. تفسر الرمز الدينى ، إذ أن كلمة «نتر» معناها الطاهر أو الإله. يضاف الى ذلك أنه كان يخلط دائما بالبخور فى طقوس التطهير.

ومن الاطعمة الرئالية فى مصر القديمة ، لحوم الضأن والبقر والثيران ، واللبن والطيور ، مثل البط والأوز والعصافير. ولم يعرف الدجاج إلا فى عهد متأخر. ولعل أهم ما كانوا يتناولونه منها أنواع السمك.

وكانت الفواكه كثيرة ، كالشمام والبطيخ والخيار والبلح والزيتون والتين والعنب. وكذلك الخضر التى كانت متنوعة. منها البصل والكرات والثوم والحبوب والفجل. وكان المصريون يستعملون العسل فى التحلية ، وزيت الزيتون فى طهو الأطعمة.

وكان الماء ينقل فى قرب مصنوعة من جلود الحيوانات. ويحفظ فى أوعية من الخزف المسامى. ولكنه لم يكن المشروب الوحيد. فقد كانت هناك الجعة ، التى تشبه البوظة المعروفة فى وقتنا الحاضر. وكان هناك النبيذ ، الذى لم يكن شراؤه فى متناول الجميع ، بل كان مقصوراً على الأثرياء .. وكانت أنواع هذا النبيذ عدة ، أهمها ما كان يصنع من العنب والبلح.

المســاكن. واذا ما انتقلنا الآن الى داخل البيوت ، وجدنا أنها كانت تهوى «بالملاقف». وترش بمحلول النطرون لقتل الحشرات. وكانت مزودة بالمراحيض ، مما أثار دهشة هيرودوت فقال: «إن المصريين يختلفون فى عاداتهم عن بقية الشعوب الأخرى. فهم يتناولون طعامهم خارج مساكنهم ، بينما يقضون حاجتهم داخلها» .. وليس من شك فى أن قول

هيرودوت هذا ، يدل على أنه لاحظ وجود المراحيض فى البيوت. وبالرغم من أننا لم نكتشف مسكنا واحداً يرجع الى المملكة القديمة ، إلا أننا استمددنا معلوماتنا عنها من القبور التى كشف عنها فى سقارة ، شمالى الهرم المدرج ، وخاصة من المصطبة رقم ١٣٠٢ ، الخاصة بروابو ، الذى كان معاصراً لفرعون الأسرة الثانية «نترمو» (حوالى ٣٠٠٠ ق م). وهذه المصطبة ، وهى من عهد الدولة القديمة ، تحتوى على نماذج مصغرة للبيوت التى كان يسكنها المتوفى فى حياته ، لتعمرها روحه بعد ذلك. ويمكن القطع بأن القاعة التى على شكل حرف H فى الرسم البيانى لهذه النماذج ، كانت تضم الحمام والمرحاض. وشكل هذه المراحيض لا يختلف عما وجد عليه طوال الحضارة المصرية ، فهو مكون من حاجزين كل منهما على شكل مربع منحرف ، قاعدته إلى أعلى ، وبينهما وعاء ممتلئ إلى نصفه بالرمل. وكان المرحاض يحتل دائما من البيت الجهة الجنوبية الشرقية.

وفى المملكة الوسيطة ، لم تضم المقابر مساكن للروح ، وإنما استعيض عنها بنماذج صغيرة من الخزف. كما أنه لم يعثر على أى أثر للحمامات أو المراحيض فى أول مدينة وجدت كاملة وهى اللاهون «كاهون» التى بناها سيزوستريس الثانى (١٩٠٦/ ١٨٨٧ ق م) فى الفيوم. على أن هناك رواية ترجع الى عهد المملكة الوسيطة ، تشير الى وجود حمام فى بيت أحد الأمراء المعاصرين لسيزوستريس. وقد ذكرت أسماء لأوانى تشبه الأبريق والطست ، كما وجدت مصفاة داخل تابوت خشبى فى دير البحرى ، يرجع الى ما قبل المملكة الحديثة.

وقد نجح الفرعون الموحد والمجدد فى ميدانى الدين والفنون «أخناتون» فى تحسين الجهاز الصحى بالبيوت فى المدينة التى سماها «أفق قرص الشمس»

وهى «تل العمارنة». والفضل فى ذلك يرجع من غير شك إلى ما تميز به من حساسية الفنان المرهفة .. فقد اكتشف بورشاردت فى مدينة تل العمارنة أربعة أنواع من المراحيض. وهناك نماذج أخرى وجدت فى مدينة هابو ، كما وجدت مقاعد متنقلة لقضاء الحاجة. وكل هذه الانواع مزودة بمقاعد مفتوحة من أعلى ، لتهبط الفضلات من هذه الفتحات ، فتتلقاها أوانى خاصة.

هذا عن المراحيض ، أما الحمامات فقد وجدت منها أمثلة عدة فى هذا العصر. ولم يكن المستحم ينغمس فى حوض مملوء بالماء ، كما كان يفعل الإغريق والرومان ، وإنما كان يصب الماء من أعلى فوق رأسه. والطريقة الثانية أصح من الأولى.

وكانت الحمامات مزودة فى أسفلها بخزانات ، ينساب اليها الماء الملوث. وكانت الجدران المحيطة بالحمام مغطاة بالحجر أو بالخزف لصيانته .. وهذه الحمامات بلغت ذروة الترف فى عهد رمسيس الثالث ، الذى بنى معبداً فى مدينة هابو ، ثم هدمه ، وشيد على أنقاضه معبداً آخر مزوداً بعدد كبير من الحمامات ، ليستخدمها هو «وحريمه» ، وكل من هذه الحمامات كان منحوتا فى حجر واحد.

وقد أظهرت حفريات بورشاردت فى معبد «ساحورع» ثانى فرعون الأسرة الخامسة (٢٧٠٠ ق م) فى سقارة ، أحواضا من الحجر المبطن بالمعدن فى كل حجرة ، وفى كل ممر منه. وفى أسفل كل حوض ، فتحة تسدها سدادة من المعدن مربوطة بسلسلة ، تشبه تماما السدادات والسلاسل المستعملة فى الأحواض الحالية. وكانت فتحات الأحواض متصلة بشبكة من الأنابيب الجوفية ، قدر طولها بأربعمائة متر وتنتهى الى الوادى. والأنابيب

مصنوعة من صفائح النحاس المطروق ، مطوية على شكل اسطوانى ، مع مراعاة تراكب الاطراف ووضع الشفتين الى أعلى. ولكن لم يوجد أثر لتعميم نظام الصرف هذا فيما بعد. فإن المياه المطرودة من المساكن كانت تتسرب فى مجرى مشقوق فى وسط الشارع ، كما كانت الحال فى أوروبا الى عهد قريب. وكانت أحيانا تجمع فى أوعية خارج المنازل (مثلا فى تل العمارنة).

أما فى عهد البطالمة ، فقد عم استعمال المقاعد بالمراحيض. وانتشرت الحمامات العامة المزودة بالتدفئة. وكان عدد الحمامات العامة فى الاسكندرية ٤٠٠٠ ، عند فتح العرب. ولكن حضارة هذا العصر تنتسب الى حضارة الإغريق أكثر من انتسابها الى الفراعنة.

الباب الحادى عشر

الدفن والتحنيط

الدفن. حتمت العقائد الدينية السائدة بين المصريين القدماء فى عهد الأسر ، حفظ جسد الميت وصيانته ، وابقاءه على شكله قبل الوفاة ، حتى يتسنى للروح التردد عليه فى قبره ، وأن تعود الى الحياة الحسية. وأقدم وسيلة للدفن — فى العصر الحجرى الحديث — لم تزد على وضع الجثة فى الأرض. ولم يعثر على جثث ، أو قبور مبنية ، ترجع الى هذا العصر. وطبيعة مناخ مصر هى التى أوحت بهذه الوسيلة. فالجو حار. واذا دفنت الجثة فى طبقة رمل ، ذى مسام أعلى من منسوب المياه الجوفية ، جفت ، وتطهرت من الميكروبات. ثم إنها اذا ظلت على جفافها ، قدر لها أن تبقى الى الابد ، لا يصيبها التحلل ، ولا يدركها البلى. ومن هنا فقد اكتفى فى أول الأمر — قبل عهد الأسر — بمواراة الجثة التراب : إما عارية ، وإما محاطة بجلد حيوان أو بكفن رخو. وأما فى عهد الأسر ، فإن جثث الملوك والأغنياء دفنت فى مقابر عميقة بطنت جدرانها بالخشب أو الطين المجفف ... وتغير الكفن ، فأصبح مكونا من مجموعة من الأربطة المحكمة ، وأخذ كل من

المقبرة والكفن يتطور ، الى أن وصلت أساليب الدفن الى ذروة الكمال والتعقيد فى عهد توت عنخ آمون. الذى حنطت جثته ، ثم لفت بست عشرة طبقة من الأربطة المصنوعة من الكتان ، ووضعت فى صندوق ذهبى ، محفوظ فى صندوقين آخرين ، وتابوت من الحجر ، وأربعة هياكل. ولم يكن بد من أن يؤدى هذا التطور فى طرق التكفين ، فضلا عما وصلت اليه المقابر من السعة والعمق ، الى تأخير جفاف الجثة .. ومن ثم الى احتمال تعفنها ، والى ضرورة ابتكار حيل جديدة لضمان صيانة الجثة .. ومن هنا نشأت وسائل التحنيط.

التحنيــــط. ليس فى الاستطاعة تحديد الوقت الذى بدأ فيه قدماء المصريين تحنيط موتاهم. وأول مثال لهذا عثر عليه فى مقبرة الملكة «حتب ــــ حرس» والدة خــوفـو. وظلت عادة التحنيط متبعة فى مصر ، منذ ذلك العهد النائى ، حتى بداية العهد المسيحى. إلا أنها كانت مقصورة فى أول عهدها على الملوك والكهنة ووجهاء القوم ، ولم تنتشر وتتغلغل الى الطبقات الفقيرة ، الا بعد وقت طويل.

وكانت أساليب حفظ الجثث فى البداية بسيطة. ثم تطورت ، وتعقدت ، فصارت الأحشاء تنتزع من الجثة ، وتحفظ فى أوعية خاصة (وهى التى أطلق عليها اسم الأوانى الكانوبيـة) .. وما فتئت هذه الأساليب تتطور وتتطور ، حتى بلغت أعلى درجات الكمال فى عهد الاسرة الثامنة عشرة. ومما يؤسف له أنه لم يرد ذكر الوسائل التى كانت متبعة فى أى مؤلف معاصر ، اللهم إلا فى لفافة أبيس ، التى ترجع الى الاسرة السادسة والعشرين ، أى الى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، والتى تصف تحنيط عجل أبيس .. وفى وثيقة أخرى ، ترجع الى العهد الوسيط الأول أو

الثانى ، أشير الى فن التحنيط السرى. ولقد وصف هيرودوت فى القرن الخامس ق م ، وتلاه فى ذلك ديودور فى القرن الأول الميلادى ، طقوس التحنيط بشىء من التفصيل. الأمر الذى ساعد العلماء فى مهمتهم ، عندما عمدوا الى فحص الجثث ، ودراسة محتوياتها ، ومحاولة الوقوف على المواد التى استعملت فى هذه العملية الدقيقة.

وإذا كانت طرق التحنيط قد اختلفت على مر العصور ، فى خلال تاريخ مصر الطويل ، كما يتضح ذلك من جثث العهود المتعاقبة ، فإن هناك ــ مع ذلك ــ طريقة مثالية يمكن أن توصف على الوجه التالى :

أولا. تفرغ الجمجمة من المخ ، بوساطة «سـيخ» طرفه ملتو (كالسنارة) ، يدخل فى الأنف ، وتثقب به قاعدة الجمجمة. ثم يهرس بها المخ ، بحيث يصبح كالعجينة. ويمكن سحبه عن الطريق نفسه ، أى عن طريق الأنف. ويبدو أن هذه الخطوة لم يبدأ فى استعمالها إلا منذ عهد الأسرة الثانية عشرة. وكان تجويف الجمجمة يترك بعد ذلك فارغا ، أو يملأ بالصمغ ، أو بخليط من الصمغ والشاش. أما فى عهد البطالمة ، فكان يستعاض عن هذه المواد بقطران الخشب.

ثانيا. تفتح البطن من الجانب بسكين من حجر الشست ، وتنزع أحشاء البطن والصدر ، ما عدا الكليتين والقلب. ثم يترك هذان التجويفان فارغين ، أو يملآن أحيانا على الوجه الذى كانت تحشى به الجمجمة. وفى العهود المتأخرة ، كانت الأحشاء تعاد الى البطن بعد لفها. وقد وجدت بعض موميات لأشخاص ، لا يمكن القول بأن ذويها ضنوا بالمال فى سبيل تحنيطها ، تحتوى على كل أحشائها. كما عثر على موميات أخرى ببلاد النوبة ، خاوية البطن ، ولا يظهر عليها أى أثر لفتح أجرى فيها.

ثالثا. تحاك فتحة البطن. وكان ذلك فى حالات قليلة ، أما فى معظم الحالات ، فكانت تغلق بصب الصمغ المصهور عليها. كما أنه كان يوضع شمع النحل فى فتحات الإذنين والعينين والأنف والفم ، وكذلك على فتحة البطن.

رابعا. كانت الأحشاء تنظف فى نبيذ النخل والعقاقير العطرية. ثم تحشى بالمر والأنيسون والبصل. وتوضع بعد ذلك فى الأوانى الكانوبية ، أو تعاد ــ فى حالات نادرة ــ الى البطن.

خامسا. التجفيف. وهو العملية الأساسية للتحنيط ، التى تكفل للجثة للبقاء وعدم التحلل. ولقد ظن البعض أن المصريين كانوا يجففون الجثث بوساطة الحرارة أو الجير الحى. الا أننا نستبعد هذه الطرق ، نظراً لافتقارنا الى أدلة ثابتة فى هذا الصدد.

وقد استعمل النطرون للتجفيف ، وعثر عليه بكثرة فى أوان عديدة ، وفى مخلفات التحنيط ، وفى بعض الأوانى الكانوبية ، وفى القبور ، وداخل تجويف بعض الموميات ، وفى أنسجتها ، وضمن المواد الدهنية المستخلصة منها. وكذلك فى الصموغ وغيرها ، مما كانت تحشى به الأحشاء ، وعلى أربطة التيل. هذا فضلا عن أنه وجدت رواسب منه على بعض الآلات والأسرة والمناضد التى استخدمت فى التحنيط.

ويروى هيرودوت أن الجثة كانت توضع فى النطرون سبعين يوما .. وقد ظن فى بادىء الأمر أنها كانت تغمس فى محلول منه. الا أن المرجح ــ حسب التجارب التى أجراها لوكاس والدكتور زكى سعد على الطيور ــ أنها كانت توضع فى نطرون جاف. إذ أن الملح العادى يحدث فيها تآكلا سريعا. وان فعل المحاليل مؤقت ، وسرعان ما تصاب الجثة

بالتحلل بعد اخراجها منها.

سادساً. وبعد أن يتم تجفيف الجثة ، كانت تنزع من النطرون الجاف ، ثم تغسل بمحلول منه ، وتدهن بالزيوت العطرية. وكثيراً ما كانت تدهن الأصابع بالحنة ، وتملأ التجاويف الناجمة عن التحلل ، فى العضلات أو الأعضاء ، فى أثناء التجفيف ، بالكتان والرمل ونشارة الخشب. وتدهن الجثة بالصمغ.

سابعا. بقيت مرحلة التغليف .. وكانت الجثة تلف بلفافات من الكتان المشبع بالأصماغ.

وكانت هذه الطريقة باهظة النفقات ، وتتبع لتحنيط جثث الأثرياء .. أما عن جثث الطبقات المتوسطة ، فإن هيرودوت يروى أن المحنطين كانوا يكتفون — للتقليل من النفقات — بحقن الجثة بزيت الأرز من الشرج ، وبإغلاق الفتحة المترتبة على هذا الحقن بالخياطة طوال فترة التجفيف بالنطرون. فإذا ما انقضت هذه الفترة فتح الشرج من جديد ، حاملا معه ما أذابه أو فتته من الأحشاء والفضلات ، إلى حد أنه كثيراً ما كان لا يبقى من الجثة سوى العظام والجلد. وهذه الطريقة هى التى جاءنا وصفها فى بردية أبيس آنفة الذكر.

وفيما يتصل بجثث الفقراء كان يستعاض عن زيت الأرز — فى تحنيطها — بزيت بذور الفجل. وقد قال بليوس إن استخدام هذا الزيت فى هذا المضمار سبب غلاء الفجل فى ذلك الوقت.

كلمة الختام

هل يحق لنا ، مع نقص مراجعنا ، إبداء رأى قاطع فى الطب الفرعونى ، أو هل سنتراجع أمام أية محاولة لمعرفة «مديونية» الحضارات العالمية لمصر ، وبصفة خاصة «مديونية» الحضارة الإغريقية التى نبعت عنها حضارة الغرب؟.

إن الأواصر التى ربطت مصر باليونان ، تبلغ من القدم والمتانة ، ما جعل الأساطير تروى عنها المعجب والمطرب منذ العهود السابقة للتاريخ.

ولم يقتصر تناول التبادل بين مصر واليونان على السلع والعلوم والفنون ، بل تعداه الى تبادل الهجرة. فعمّر «داناوسى» المصرى شبه جزيرة البلوبونيز. كما استوطن الأغريق شمال الدلتا. وتحالف الشعبان ، واشتركا فى الحروب . ومن ذلك أن شعب البحار ، وهم سكان جزيرة كريت ، خف لنجدة أحمس عندما حرر بلاده من الأجانب ، وقد استمرت تلك العلاقات ودية ، وطيدة الأركان ، دون انقطاع أو فتور ، طوال الأربعين قرنا التى سجلها تاريخهما.

وهذا الأمر لا يدع مجالا للشك ، فى أن علوم الطب قد تبودلت بينهما.

ومما يعزز هذا الرأى تقدير الإغريق للطب المصرى.

قال هيرودوت فى الأوديسة :«إن هيلانة ابنة الإله القدير «زوس» تكتنز هذا البلسم الشافى. فقد جاءها من «بوليد امنا» زوجة «ثونيس» المصرى. فإن نباتات كثيرة تنمو فى مصر الخصيبة ، وبعضها مفيد ، والبعض الآخر ضار. وكل إنسان فى مصر لم يلم بفن العلاج. إذ أن المصريين من سلالة «بيون» طبيب الآلهة». وفى العصور التى تلت هذا العهد ، نجد «أنا خارسيس» يخاطب مواطنيه الإغريق ، ويؤنبهم على تفضيلهم الأطباء المصريين على أطبائهم.

ولذا فان بالمقارنة بين الطبين من بعض نواحيهما. وهى فن العقاقير ، وأسماء اجزاء الجسم ، والأوصاف الاكلينيكية ، وتسمية الأمراض ، والطرائق الجراحية ، واختبارات الحمل والولادة ، وأسلوب الكتابة ، والآراء الطبية ، إن مثل هذه المقارنة تكشف عن علاقات وطيدة بين الطبين.

ولست أستند الى العقاقير التى استعملها الشعبان فحسب. إذ أن مثل هذا الاستعمال قد يكون نتيجة طبيعية لتشابه المجموعة النباتية فى هذه الناحية من حوض البحر المتوسط. وإنما تصح المقارنة إذا تجاوز هذا التشابه احتمالات الصدف ، إما لغرابة الدواء ، وإما لتشابه الاسم فى اللغتين.

نقول ــ بادىء ذى بدء ــ إن ديوسقوريد ، صاحب الأقرابازين الذى ظل أساسا لعلم العقاقير حتى عهد قريب ، رد ٢٠ بالمائة مما ذكره الى المصريين ، وسرد أسماء تلك العقاقير فى اللغتين.

ولنضرب مثلا لعقاقير غريبة وردت فى الطبين. فان بردية إيبرز ما تفتأ توصى باستعمال الإنسان الصفراء لعلاج العينين. وقد قدم دوسن حججا

قوية على أنهم إنما قصدوا بهذا صفرة الخنزير وصفرة الثيران. وقد أوصى ديوسقوريد باستعمال المادة نفسها فى بعض الأمراض ، وعزا بلينوس تلك الوصفة الى ميليتوس. ولكن دوسن يرجح أنها مستمدة من بردية مصرية. وتلك الوصفة شبيهة بالعلاج الذى أعاد البصر الى طوبيا ــ حسب رواية التوراة.

والوصفة الثانية من تلك الوصفات الغريبة ، هى استعمال لبن المرأة التى أنجبت طفلاً ذكراً. وهذا العلاج يتكرر فى أقرابازين المصريين القدامى. حتى انه ليبدو أساسا من أسس علاجهم. وذلك إما لخواصه الذاتية ، وإما لإذابة عقاقير أخرى. وهذا العلاج أوصى به أيضا أبقراط ، وبعده ديوسقوريد وبلينوس ، وفسر أرسطو فوائده التى تميزه عن غيره من الألبان. فقال : إن السيدة التى تحمل ذكراً أقوى بدون شك من تلك التى تحمل أنثى. ولذا فلا بد من أن يكون لبنها أكثر فائدة. وتلك الوصفة أصيلة فى مصر ، انفردت بها دون غيرها من شعوب الشرق. إذ أن اللبن فى نظر الأشوريين والبابليين كان مادة ضارة.

ولنذكر وصفتين أخريين من تلك الوصفات الغريبة التى نقلها الأغريق عن المصريين ، أولاهما وصفة شوك القنفذ المحروق لعلاج الصلع ، التى نقلها ديوسقوريد. وثانيهما استعمال البول فى مرهم ، لمنع رموش العين من النمو ، وفى شراب لعلاج البول الدموى والصرع ، وهاتان الوصفتان وردتا فى مؤلفات ديوسقوريد وبلينوس والأقباط.

ولكن أغرب تلك الوصفات جميعا وصفة وردت فى قرطاسة سحرية ، أوصت بقلى فأر فى الزيت ، تأكله الأم أو الطفل لشفاء سيل اللعاب واضطرابات نمو الاسنان عند الأطفال.

ومن البين أننا ــ عند استعمال شوك القنفذ لإنماء الشعر ، وإعطاء الفئران ذوات الأسنان الطويلة لعلاج الأسنان ، وشرب البول للشفاء من البول الدموى ــ ننتقل إلى عالم آخر ، هو عالم السحر التشبيهى.

ونحن نجد هذا التسلسل نفسه ، فى أسماء بعض العقاقير المتشابهة فى اللغتين:

	لاتينى	اغريقى	مصرى
الأنتموان	ستبيوم	ستيمى	مسدمت
الصمغ	جومى	كومى	قميت
النوشادر	أمونياك	أمونياكوس	(مشتق من اسم الإله آمون)
الحنتيت	اسافتيدا	ساجابنون بتبادل اول حرفين	جسفن (بتبادل أول حرفين)
النطرون		نطرون	نترى (وهى كلمة وردت أيضا فى اللغة العربية)

أسماء الأعضاء. وهذا التشابه ، نجد له نظيراً فى أسماء بعض الأعضاء والأمراض. فقد سمى الإغريق حدقة العين «خورى» اى الشابة ، وسماها المصريون «شابة العينين». وهذه التسمية لها نظير فى اللاتينية ، وهو

Pupilla أى البنت القاصر ، والأسبانية وهو Nina de los ojos بنت العينين كما أنه يشابه الأسم الذى أطلقه العرب على الحدقة ، وهو «إنسان العين». أى أن الاستعارة المصرية نقلها الإغريق ، ثم اللاتين والعرب والأسبان ، نقلا حرفيا. ولن نترك العين دون أن نشير أيضا الى أن «الماء الأبيض» الذى سماه الغربيون بالكاتركتا (أى الشلال) سماه المصريون «صعود الماء» ، والاغريق «أيبوخيسيس» أى انسكاب الماء ، واللاتين Suffusio بالمعنى نفسه.

واذا تأملنا فى المعدة والقلب ، وجدنا خلطا لغويا عجيبا بينهما فى أغلب اللغات. فقد أطلق المصريون على المعدة «رونيب» ومعناها فم القلب ، كما نفعل اليوم فى لغتنا الدارجة. وبالمثل فإن الإغريق سموها «ستوماخون» وهو لفظ مشتق من «ستوما» أو فم. ونحن نطلق كلمة «كارديا» أى القلب ، على أعلى المعدة. ونقول عمن يشعر بميل للتقيؤ إن «قلبه قايم عليه».

وهناك لفظ آخر متشابه فى اللغتين. فان النظرة الروحانية الى المرض ، التى عمت بين بعض المصريين ، كانت تنسب المرض الى أرواح شريرة ، على رأسها كبير سموه «النامى». وصاحب الفتنة هذا هو الذى سماه الاغريق «ديا بولس» ومعناها فى لغتهم «النامى» ، وقد اشتقت منها الانجليزية والفرنسية والايطالية إسم إبليس.

العلاجات الجراحية. ولكن التشابه لم يقف عند مجرد الاقتباس. ولنأخذ مثلا طرق العلاج الجراحية ، وردت فى أبقراط التحريكات التى يجب إجراؤها لرد خلع الفك : «ويثبت المساعد رأس الجريح ، ويمسك الفك الاسفل من الداخل والخارج ، بالقرب من الذقن بالأصابع. ثم ينقل فجأة

..» الخ. وهى ترجمة لفظية لما ورد فى بردية ادوين سميث.

وقد رسم لتلك الطريقة رسم جميل فى شرح لكتاب المفاصل لأبقراط ، وضعه أبولونيوس فى القرن الأول الميلادى.

كســر الترقــوة. بردية ادوين سميث : الحالة ٣٥ : «إذا تفحصت عن رجل مصاب بكسر فى الترقوة ، ووجدت بها قصر ، فقل : هذا مرض سأعالجه ، والقه على ظهره ، ثم ضع بين اللوحين وسادة ، حتى يبتعد جزءا ترقوته ، ويرجع الكسر الى موضعه».

أبقــراط : كتاب المفاصل : «ولكن هناك طريقة ، وهى كما يلى : «إن كان القصر قد انتقل فى اتجاه المحور الأمامى والخلفى ، ألق المريض على ظهره ، وضع بين اللوحين شيئا مرتفعا ، حتى ينخفض الصدر من الجانبين بالقدر الممكن».

ولنتدرج الآن إلى طرائق التكهن فى **أمراض النساء.** تحوى برديات برلين وكارلزبرج وكاهون ، مجموعات من الاختبارات التى كان الغرض منها التكهن بنوع الطفل قبل ولادته ، والتمييز بين السيدات الخصيبات وبين غيرهن. وتلك الطرائق متشابهة الى حد يجعلنا نتساءل : هل هى مأخوذة من أصل واحد عتيق؟. قد يكون هذا الأصل الموسوعة التى تحدث عنها كليمان الاسكندرى ، والتى قال إنها كانت تحفظ منذ عهد سحيق بالمعابد المصرية. وإن الجزء الخامس منها موضوعه أمراض النساء ، والسادس موضوعه الرمد. ومن الحجج التى دفعت إيفرسن الى اعتناق الرأى ، بأن قرطاسة كارلزبرج مأخوذة من تلك الموسوعة ، أن واجهتها مخصصة لأمراض النساء ، كالجزء الخامس ، وظهرها للرمد ، كالجزء السادس.

ولتلك الاختبارات أنواع ثلاثة :

فأما النوع الأول فإنه مبنى على تأثير بول الحامل على نمو القمح أو الشعير ، حسب نوع الطفل الذى تحمله. وهذا النوع من الاختبارات وجده إيبرز مذكوراً فى كتابات قسطنطين الإفريقى ، الذى نقل مؤلفات كثيرة مدعيا وضعها. وقد كان إيبرز استنتج من هذا أن بعض الأصول المصرية ، كانت فى متناول قسطنطين فى ترجمتها القبطية أو العربية. إلا أن إيفرسن كشف فى مؤلف لطبيب من فلورنسا وهو «بتروس بايروس» عن الوصفات نفسها التى نقلها عن بعض الأصول البيزنطية. ومن الأصول البيزنطية التى ذكرت النص ذاته «الكودكس بولينى لبسينسيس» المماثل لمؤلف Peri efporiston المنسوب الى جالينوس. ومنها أيضا بعض التراجم المتأخرة لسورانوس ، التى دست فيها تلك الطريقة حسب رأى ايفرسن. وتلك الملابسات ـــ أي وجود النصوص ذاتها فى كتابات بيزانطية ـــ توحى بأن بعض الوصفات المصرية وصلت عن طريق الإغريق الى سالرنا ، حيث كان قسطنطين يمارس مهنته ، ويضع المؤلفات ومنها الى اوربا.

وأما النوع الثانى من الاختبارات ، فإنه يبدو مبنيا على فكرة معقولة ، وهى أن هناك اتصالا بين المهبل وبين التجويف البطنى عند السيدات الخصيبات ، وأن هذا الطريق مسدود عند السيدات العقيمات. ذلك أن الوصفة ٢٨ من بردية كاهون ، ووصفة الجزء الثالث من كتاب «السيدات العقم» لأبقراط ، توصيان بوضع بصلة طوال الليل داخل المهبل. فان فاحت رائحة البصل من الفم فى اليوم التالى ، استدل على أن السيدة سوف تحمل. وكذلك اوصت الوصفة ١٩٥ من بردية برلين ، وأخرى من

بردية كارلزبرج ، بالتبخير تحت السيدة المطلوب اختبارها. فان تجشأت (تكرعت) فأن الحمل ممكن. ومثل تلك التجربة بالتبخير وردت فى «فصول» أبقراط. وان اختلفت العوارض التشخيصية ، وهى ظهور رائحة المادة المبخرة فى الفم مثلما تظهر فى وصفة البصلة. وقد ذكر أيضا هذا الاختبار عن طريق الفم فى بردية برلين ، حيث جاء أن السيدة اذا تقيأت بعد أكل بطيخ ممزوج بلبن امرأة أنجبت طفلا ذكراً ، فإنها سوف تحمل. أما اذا أخرجت غازات ، فانها لن تحمل. وفى كتاب «السيدات العقم » أوصى بإعطاء «بوتون» مع لبن من النوع نفسه. فإذا تجشأت (تكرعت) الحامل استدل على أنها ستلد ، وإلا فإنها لن تحمل. وقد أكد دوسن بعد دراسة لغوية مستفيضة ، أن «البوتون» هو نوع من القرع يشابه البطيخ ، الذى سماه المصريون «بدد» وهذا لفظ يشابه تسميتنا العربية الحالية «بطيخ».

ولم يكتف أبقراط بهذا ، بل أكد أن هناك مواد أخرى تسبب الانفعالات نفسها ، كشراب العسل. ولكن طرائق الاختبار فى كل الحالات متشابهة تشابها يكاد يكون تاما.

والمجموعة الثالثة من تلك الاختبارات وردت فى بردية كارلزبرج ، وهى مبنية على لون العينين. وتلك طريقة استعملها أبقراط كذلك لتشخيص الحمل أو التكهن به.

لهذا يصح لنا أن نرجح أن بعض أجزاء موسوعة مصرية فى أمراض النساء ، وصلت الى أبقراط مجزأة فنقلها. ثم نقلها منه أطباء بيزانطة ، وبعدهم أطباء ساليرنو ، ومن ثم علماء أوربا. كما أن هذا يوضح السبيل الذى قد تكون طرقته بواقى الطب الفرعونى ، التى ما زالت واضحة فى

الطب الشعبى الأوربى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وفيما يخص الدورة الدموية ، فان معلومات المصريين تبدو أصح من آراء أبقراط فيها. فقد ورد فى بردية إيبرز — قبل هارفى بأربعين قرنا — أن القلب يستقبل الدم والهواء والسوائل ، ويوزعها. وأن النبض الذى يستحس فى مختلف أجزاء الجسم ، إن هو إلا كلام القلب فيها. وهذا ما جهله الإغريق.

ولكن هل عدّ المصريون ضربات القلب؟. إن هذا العد ذكره لأول مرة فى التاريخ هيروفلوس الاسكندرى ، الذى استعمل لهذا الغرض ساعة مائية. وهناك عبارة فى بردية إدوين سميث ترجمت «عد النبض أو وزنه». وترجمها جرابو «قياس القلب». ورجح بريستد أن المقصود منها هو عد النبض. ومن عجيب الصدف حقا أن يكون أول من ذكر عد النبض طبيب اسكندرى. إذ أن أطباء تلك المدينة ، عندما بدأ البطالمة يدرون عليهم المساعدات وألوان التشجيع ، كانوا ورثوا مدارس ومكتبات الدلتا ، التى كان عاهل الفرس دارا قد أعاد بنائها ، وتزويدها بالمؤلفات والآلات قبل هذا العهد بعدة قرون. وكانت ما تزال تزخر بالمؤلفات فى القرن الثانى. قال ديودور الصقلى: إن أطباء الإغريق كانوا يؤمون مكتبة منف للاطلاع على ما فيها من الكتب ذوات القيمة.

ان «كتاب القلب» فى بردية إيبرز يبدأ بالعنوان الآتى : «هذا بدء كتاب الطبيب السرى». هل كان اذن قياس سرعة القلب أحد تلك الأسرار التى لم يفشها كهنة مصر لزوارهم حسبما روى سترابو؟.

وهناك مشاهدة أخرى تبدو كأنها وثبت من البرديات الى كتابات أبقراط ، وهى معرفة الشلل الذى يحدث من جرح فى المخ أو النخاع

الشوكى. فلقد وصف أبقراط فى كتابه عن جروح الرأس التقلصات التى تنتاب جزء الجسم المناقض لجهة الرأس المصابة. وهو فى هذا أصوب من المصريين. ولكنه ربطهما لا بالجرح ذاته ، ولكن بالالتهاب الذى يضاعفه. وعلى كل حال فإنه لم يذكر شأن المخ فى ذلك ، معتقداً أنه غدة ، وذلك نظراً الى طبيعته الأسفنجية. واليك النص :

«اذا ما أهمل الطبيب فى البحث عن كسر أو شرخ أو كدم ، فلم يكحت العظمة ، ولم يتربنها ، فإن الحمى تصيب المريض ، ويتغير لون الجرح ، ويصبح لزجا ، وأشبه باللحم المملح ، ويبدأ عندئذ يغنفر ويموت المريض فى حالة هذيان».

وهناك مرض آخر ينسب أول وصف له الى أبقراط وهو التيتانوس وقد يكون سبقه اليه مؤلف بردية إدوين سميث فى وصف الحالة السابعة ، وهى حالة كسر جمجمة ، تبعه تقلص فى الرقة وتحوج فى الفم. ولو أن الاستاذ الدكتور كامل حسين اعترض على هذا وعدها حالة التهاب سحائى. وقد قالت البردية ، إن المرض قاتل «ما لم تظهر علامات تراخ لدى الفحص الثالث». ويمكن مقارنة هذا القول بما ورد فى أبقراط. فقد قال إن المريض بالتتانوس يبرأ إذا انقضى أربعة عشر يوما بعد بدء المرض. وهذه الفكرة هى فكرة «الأيام البحرانية» التى هى من صميم أفكار أبقراط ، والتى تنم على اهتمامه بمعرفة مآل المرض الذى أفرد له مؤلفا كاملا أسماه العرب «تقدمة المعرفة» ، ولكن المصريين أبدوا الاهتمام نفسه ، فقد ذيلوا كل مشاهدة من مشاهداتهم الإكلينيكية بعبارة تدل على رأيهم فى نهاية الحالة واحتمال إشفائها.

ولننظر الآن الى أمراض النساء ، ولا حرج من تكرار ما سبق لنا قوله ،

فيما ورثه الاغريق والعرب عن هذه الحقبة. لما لذكر هذا من شأن فى الحكم على القضية التى نحن بصددها ، فقد وصفت بردية كاهون وغيرها ، اضطرابات وآلاما فى العينين والاعضاء ، ومختلف أجزاء الجسم ، عزتها الى حالات مرضية فى الرحم ، أو الى انتقال هذا العضو من محله الطبيعى. وجاء الوصف ذاته فى الكتاب الثانى من مؤلف أبقراط عن أمراض النساء. ومن تلك الاضطرابات مرض عصبى. ان هذا ليذكرنا بالعبارة المشهورة «ان كل المرأة فى رحمها» وقد يكون من المناسب أن نذكر فى هذا الصدد أن لفظ هستريا مشتق من «هستر» وهو الرحم فى لغة الأغريق.

أما علاج تلك الأمراض ، فقد ورد فى بردية إيبرز علاج لفتحة عنق الرحم ، وهو مرض وصفه أيضا أبقراط ، ويذكرنا هذا بمرض آخر غريب اشترك الشعبان فى وصفه ، وهو اتساع حدقة العين التى سبق أن ذكرنا تشابه أسمها المصرى واسمها الإغريقى. فقد عنيت بردية إيبرز بوصف علاج له. ويبدو لنا وصف علاج لمثل تلك الحالة عجيبا ، ولكن اليونان اعتبروا هذا الاتساع مرضا والأرجح أنهم لاحظوا أتساع الحدقة عند فقدان البصر ، فظنوه سبب تلك العاهة .

وبعد هذه الجولة فى الامراض وأسمائها ، والعقاقير ووصفها ، يجدر بنا أن نقارن بين المنهج اللغوى الذى نهجوه فى الكتابات الطبية. نستنتج أولا أن التبادل كان مضطرداً نشيطا ، إذ أن تعزيمة من بردية لندن كان يشترط فيها أن تتلى فى لغة جزيرة كريت ، وقد أظهر دوماس أن تعبيرات وأساليب لغوية ، تكررت فى الكتابات المصرية ، تلازم العودة فى الكتابات الأبقراطية. فان عبارات مثل : «دواء آخر» و «اللوفارماكون» والعبارة التى كثيراً ما تتكرر فى الهوامش «دواء ناجح» والتوصية بترك الدواء معرضا لندى الليل ، مشتركة بين الطبين.

الآراء الطبية : وهناك سؤال يتبادر إلى الذهن. لقد قورن طب المصريين بطب الاغريق ، وميز الثانى عن الأول. إذ نعت الأول بالشعوذة والروحانية. ووصف الثانى بالمنطقية والتعقل ، والاعتماد على الاختبار. ولكن الاعتبارات السالفة تدفعنا الى التعجب. ألم توجد بينهما بالاضافة الى مجرد الاقتباسات العملية نقط مشتركة فى التفكير الطبى ؟ .

ومع ذلك ، ومع قلة ما ورد فى النصوص عن أسباب الأمراض وكيفية حدوثها ، فانه يبدو لنا أن كتاب «القلب والأوعية» وبعض النصوص المبعثرة فى البرديات المختلفة ، تحوى نشأة نظرية الأخلاط الاغريقية ، ونظرية الروح Pneuma التى سادت جزءاً من الفكر الطبى فى الاسكندرية.

لقد ناقشنا هذا الموضوع فى باب الأمراض ، واستنتجنا أنه يجب علينا الاكتفاء بالقول ، إن نظرية الاخلاط الاغريقية الاصل ، التى سادت الفكر الطبى حتى القرون الأخيرة ، ربما تكون قد أسست على تأملات الأطباء المصريين. ولكنها لم تصل الى شكلها النهائى إلا بعد تطور طويل ، على ضوء آراء أنبادقليس وفيثاغورس والقمارون وأبقراط الفلسفية والرياضية.

ولقد أراد البعض ادخال الشك فى قيمة الطب المصرى ، وفى الفائدة التى جناها منه أمثل أبقراط. فبدأوا بالقول إن أبقراط لم يحضر الى مصر أبداً ، وأن الروايات عن زيارته مشكوك فى صحتها ، لأنها روايات متأخرة ألفت قرونا عديدة بعد وفاته. ثم أضافوا أنه لم يكن على علم باللغة المصرية القديمة ، ولا بالهيروغليفية ، فكيف تأتى له أن يتصل بالكهنة ، ويتعرف على أسرارهم ؟. وانتهوا بالقول بأن علوم المصريين كانت مزيجا من الشعوذة والسحر والطب البدائى ، ولم يكن بها غناء لأبقراط وأمثاله.

وقد عنى عالم فرنسى «الأستاذ فرانسوا دوما» بالاجابة على كل هذا.

فأظهر أولا أن أول كاتب تحدث عن زيارة أبقراط لمصر كان معاصراً له. ثم إن علوم المصريين لم تكن على ما وصفها هؤلاء ، فإنها كانت متقدمة جداً ، وإن كنا نجهل الكثير منها لقلة المستندات التى وصلتنا عنها. ثم أتى بالبرهان على وجود تبادل لغوى نشيط بين الجالية الاغريقية وبين المصريين ، ظهر فى استعمال الاثنين أساليب متبادلة وكلمات مشتركة. وذكر لتدعيم هذا ، وجود مترجمين (تراجمة) فى المعابد والعواصم ، من الإغريق والمصريين ، يلمون كل الالمام باللغتين ، ليساعدوا التجار والمسافرين والزوار والسياح فى معاملاتهم مع المصريين.

أما العلاقات بشعب موسى ، فإنها لم تتوقف منذ أوائل تاريخهم حتى العهد المسيحى ، عندما تشتتوا بعد هدم معبد القدس من أسوان إلى الاسكندرية. وقال عنها «فايل» إن مصر كانت أحد منابع ـــ إن لم تكن المنبع الرئيسى ـــ لأدب اسرائيل. وقدم «إرمان» البرهان على أن حكم سليمان ، كما وردت فى التوراة ، مستقاة من البرديات المصرية.

ثم إننا نرى أساليب فنية ، كاستخدام زهرة اللوطس أو الصليب المعكوف ، تتردد فى فن الهند كما تتردد فى الفن المصرى. وأساليب علاجية ، كرد خلع الفك ، ونظريات طبية اتخذها إمام الطب الهندى سوشروتا من المصريين. ونشاهد فى عاصمة فارس (برسيبولس) عمارات ومبانى كأنها من عمل معماريين مصريين. ولا عجب فإن حركة السفر والتزاور بين الأدباء والعلماء والساسة كانت أكثر رواجا مما نظن. وكان السفر من التروى والبطء ، بحيث يسمح بالتدارس والتفاهم وتبادل الافادة.

اما فيما يخص البلاد الأخرى ، مثل ليبيا والسودان واثيوبيا ، فان المتن لا تسعفنا فى حكمنا. وعلينا أن نبحث عن آثار التبادل فى الفولكلور ، حيث

تتجمد العادات القديمة. فإننا نجد مثلا طرائق تشخيصية وعلاجية مستعملة الآن فى آسيا الصغرى ، ما من شك فى أنها رواسب بردية كاهون ، وكتابات أبقراط. وقد وصفها الاستاذ التركى الدكتور كازانجل وصفا مستفيضا.

أما فى مصر فإن التقاليد لم تنقطع ، وما نزال نشاهد اليوم ممارسة بعض وسائل السحر ، واستعمال بعض المواد ، كلبن النساء ، وصفراء الحيوانات ، ودهونها ، وبعض الأعشاب ، ونسبة المرض الى الديدان و «الهواء». ويلاحظ استمرار هذه العادات بخاصة فى ميدان أمراض النساء ، حيث أسهم فى بقاء هذه التقاليد إيثار النساء (وأزواجهن) اللجوء الى القابلات بدلا من الأطباء.

ومع هذا فإن أحكامنا ناقصة ، لنقص وثائقنا. وهى لا تزيد عن ثمان مخطوطات بقيت تراثا لثلاثين قرنا من الفكر والممارسة. وتختلف قيمتها من واقعية بردية ادوين سميث ، واحترامها للحقائق ، الى خرافات وتعاويذ بردية لندن ... فكأن خلفنا فى القرن الأربعين ، سيحكم على طبنا ، بقراءة مؤلف نسج من موسوعة أوزلر وكتب علم الرقى. ولذلك فإنه يتحتم علينا اعتبار هذه الاحكام أحكاما مؤقتة أو ناقصة .. فهناك ما إندثر من المخطوطات القيمة .. وما لم يكشف عنه حتى اليوم .. وهناك بيوت الحياة ومكاتبها ونقوشها ، التى لم يوجد لها أثر ، والتى دمرها الزمن أو الفاتحون أو المتعصبون .. وهناك كنوز التعليم الشفوى فى سراديب المعابد ، وهو الذى كان يسر به الاستاذ فى أذن التلميذ ، بعد أن يستحلفه أن يحفظ السر ، والتى ذهبت الى الأبد ادراج الرياح .. وهناك .. وهناك .. فإن كل اكتشاف أثرى جديد يزيد من تقديرنا لهذا العشب العظيم،ومن إعجابنا به.

ولا شك فى أن أى رأى يبدى عنهم ، سوف يتعدل مع مرّ الأيام ، فى ضوء ما سيعثر عليه فى المستقبل من آثار الطب القديم.

واذا كان المصريون قد نشأوا فى جو من الجهل والسرية والسحر ، شأنهم شأن غيرهم من القدماء ، فإنهم — مع ذلك — كانوا أول من حاول التخلص من هذه الخزعبلات.

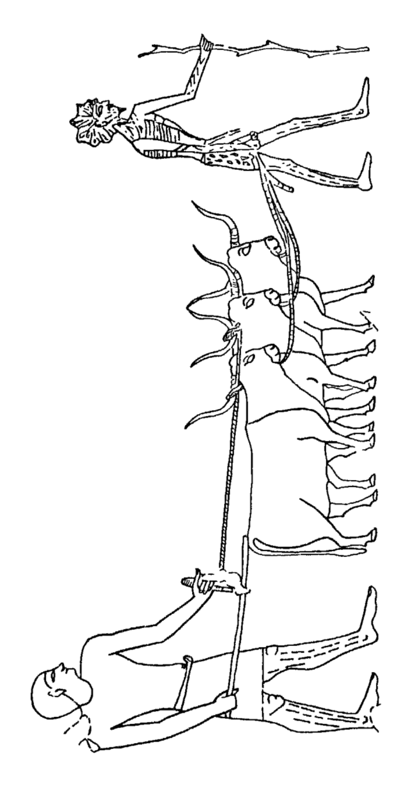
واذا كنا نأسف لأن المتأخرين منهم قد اكتفوا بتعاليم القدامى ، فيكفيهم شرفا أنهم حرصوا على حمل الشعلة ، وصيانتها ، الى أن وصلت الى أبقراط وذريته الروحية.

فهـرسـت

الصفحة



(شكل ٢٠) تمثال شيخ البلد (المتحف المصرى)



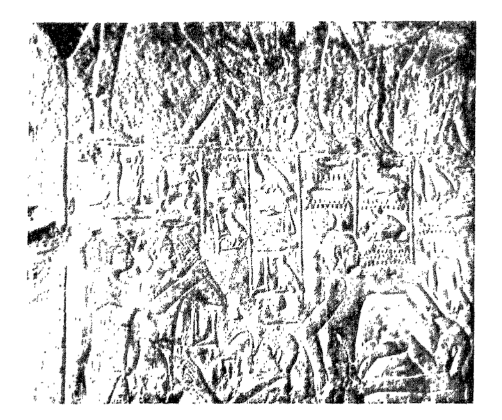
(شكل ٢١) حالة هزال بشعة نتيجة لسوء التغذية أو المجاعة



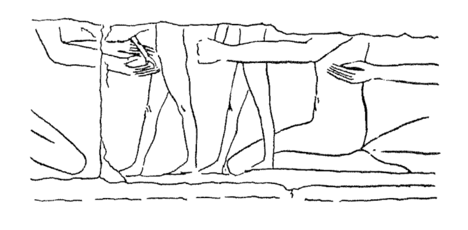
(شكل ٢٢) إناء فى صورة فرس البحر ــ كان يحفظ فيه لبن
النساء اللاتى أنجبن ذكوراً



(شكل ٢٣) إناء فى صورة سيدة تحمل رضيعا نحيفا كان يحفظ
به لبن النساء اللاتى أنجبن ذكوراً

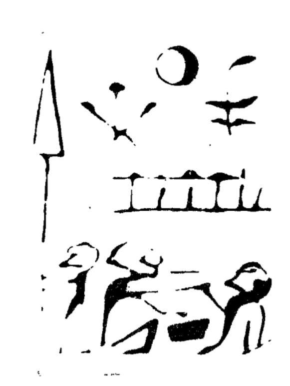


(شكل ٢٤) الختان (مقبرة عنخ ماحور)

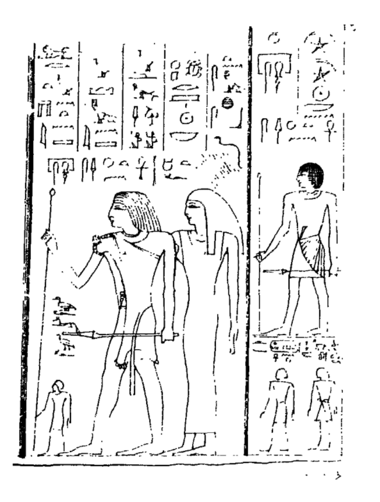


(شكل ٢٥) الختان (الكرنك)

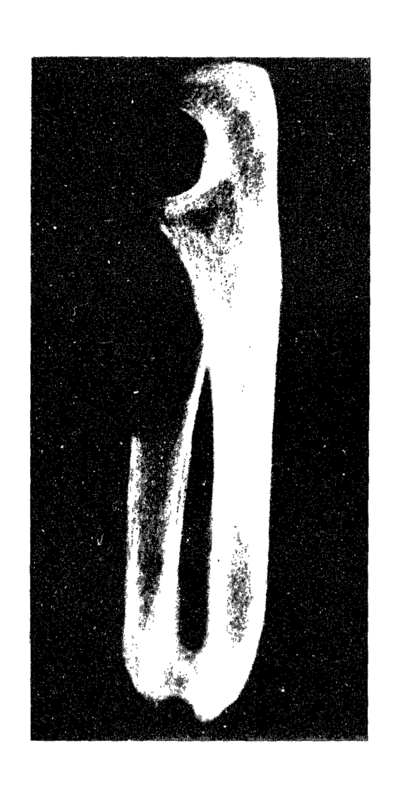




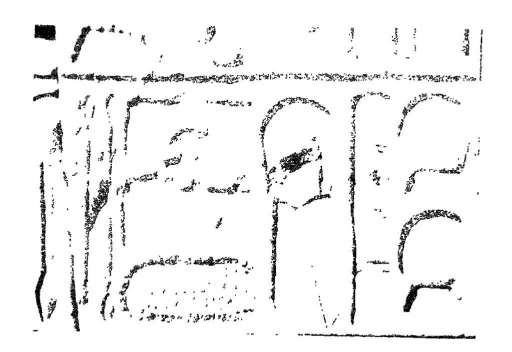
(شكل ٢٦) لوحة الملك چر



(شكل ٢٧) رسم من مقبرة رمسيس السادس يمثل بابا من
« كتاب الكهوف »



(شكل ٢٨) صورة بالأشعة السينية لعظمتى العضد . مبتورة فوق المعصم ، وقد تم التحامها

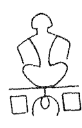


(شكل ٢٩) جزء من نحت بمعبد كوم امبو ، توهم البعض أنه لآلات جراحية ، ومن الواضح أنها لا يمكن أن تكون كذلك



(شكل ٣٠) صياد منتفخ البطن والصفن ، ومصاب بفتق سرى ، قد يكون من نتائج الكبد البلهارسى (مقبرة ميحو بسقارة)

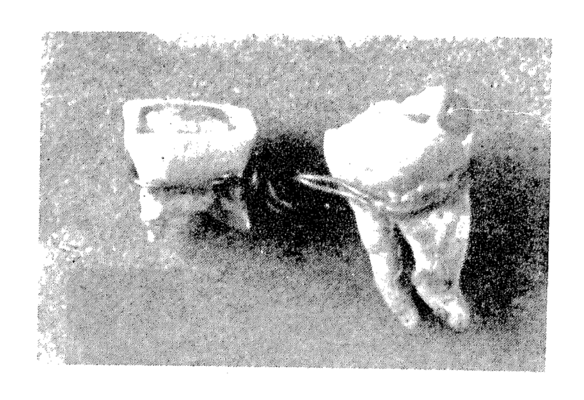




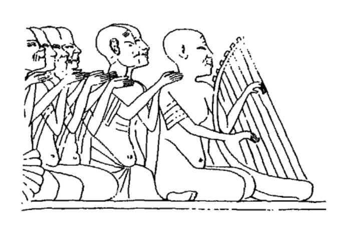
(شكل ٣١) بعض الحروف الهيروغليفية التى تؤدى معنى الولادة



(شكل ٣٢) فك به سنتان موثوقتان بسلك من الفضة



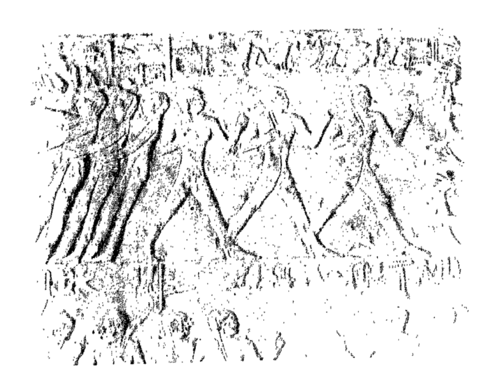
(شكل ٣٣) سنتان مربوطتان بسلك من الذهب
(متحف هلسام بألمانيا الغربية)



(شكل ٣٤) عازف على الهارب

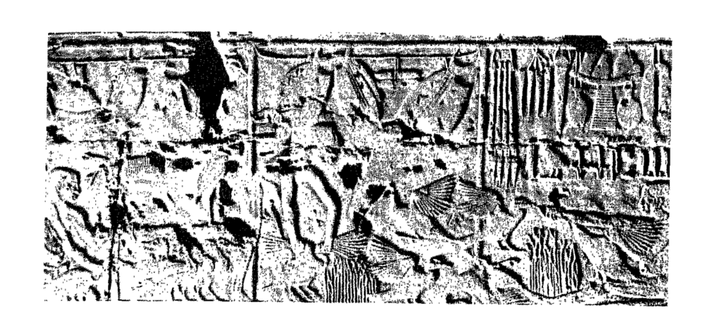


(شكل ٣٥) القنص طيبة



(شكل ٣٦) ألعاب رياضية (سقارة)

(شكل ٣٧) الرقص أثناء احتفالات الحصاد



(شكل ٣٨) صيادون يشقون السمك تو صيده ، ويجففونه
بتعريضه للشمس ، ويستخرجون منه البطارخ (بالوسط)



الطب عند قدماء المصريين

للدكتور بول غليونجي

دراسة الكتب القديمة ليست غاية في ذاتها. وإنما هي ضرورية لوضع المنهج الذى يتبعه دارس الطب في حياته المستقبلة. كما أن في هذه الدراسة فضولاً نحو ميلادنا. وتعرفاً على الطفل في إنساننا القديم وتحليلا لنظرة الإنسان إلى الكون، وتتبع تطور حضارته أو مثله العليا، خلال العصور.

وفي هذه الدراسة أخيراً تبصير لشباب هذا الجيل بماضيهم المجيد، في واقعية تخلو من التفاخر الكاذب.

المستقبل بالفجالة والاسكندرية ومؤسسة المعارف ببيروت